عمرو مجدي
المغامرة الضائعة

الخامرة الضائعة

عمرو مجدى

عمرو مجدی

جدول المحتويات

(١) لقاء في المطار ٧

(٢) الجزيرة..... ١٥

(٣) أخبار مشؤومة ٢٣

(٤) المفترس الأول ٢٦

(٥) المفترس الثاني ٣١

(٦) على وشك الهلاك..... ٣٦

(٧) صراع المفترسين..... ٣٩

(٨) الفاتنة ٤٥

(٩) فكرة للعودة إلى الديار ٤٧

(١٠) أنقذوا الفيل الغريب الصغير ٥٤

(١١) عادل وسيفي الأنياب..... ٥٨

(١٢) آكلي لحوم البشر ٦٢

(١٣) خطة واما ٦٥

(١٤) تفسير ٧٠

(١٥) وادي البط ..! ٧٦

(١٦) القطيع ٨٧

(١٧) رحيل عن القبيلة ٩٣

(١٨) خصام..... ٩٨

(١٩) واما الغاضبة ١٠٢

(٢٠) وحش الجبل ١٠٦

(٢١) إنقاذ غير متوقع..... ١٠٨

(٢٢) مغامرة في المحيط ١١٣

(٢٣) سارة تضحي ١١٨

(٢٤) سيد البحر ١٢٥

(٢٥) صراع الجبابرة ١٣٤

(٢٦) اختطاف ١٤١

(٢٧) الشيطان ١٤٨

(٢٨) نهاية الشيطان ١٥٩

(٢٩) خطة عبقرية ١٦٧

(٣٠) صفصافة ١٧٠

(٣١) رحلة العودة ١٨٣

(٣٢) قرار مصيري ١٩١

(٣٣) مثلث الرعب ١٩٤

(٣٤) الجحيم ١٩٩

(٣٥) النهاية ٢٠٦

(٣٦) خاتمة ٢١١

(١) لقاء في المطار

لو كنت أعلم يقيناً ما الذي حدث، لأرحت وارتحت، لكني حتى الآن ما زلت مشوشاً، مازالت الصورة غير واضحة أمام عيني، لم أفهمها حتى الآن، ولا أظن أني سأفهمها في يوم من الأيام.

وقد دفعتني رغبة عارمة أن أسجل ما حدث، عسى ذلك أن يجعلني أشعر ببعض التحسن.

في البداية وقبل كل شيء أنا اسمي عادل العربي، شاب في الثامنة والعشرين من عمره، يبحث عن عمل، وحين لم أجد ما يسره في مصر، اضطرر للبحث عن فرصة للسفر، والعمل بالخارج.

ووجدت الفرصة. وجدتها متمثلة في العمل كمحاسب في شركة أمريكية، وبصراحة ما كنت لأحصل على هذه الفرصة، لولا صديق لي يعمل في وظيفة مرموقة هناك، المهم أني وجدت الفرصة التي أحلم بها.

وفي المطار، بين دموع أمي، ودعوات أبي، وقفت أودعهما وأنا لا أدري، هل أتمنى حقاً أن أذهب؟ أم أنني أتمنى البقاء معهما؟ وأسررت إلى نفسي حديثاً: ليتني ما حظيت بهذه الفرصة.

ودعتهما، ودلفت إلى صالة الانتظار، وأثناء مكوثي بها، أقبلت آنسة صغيرة، في منتصف العشرينات من عمرها – كما يبدو – وجلست بجواري.

كانت بيضـــاء البشـــرة، ذات شـــعر أســـود رائع، وقوام ممشـــوق، وأنف دقيق، وعينان زرقاوان آســـرتان. كانت جميلة، ليســـت الأجمل بالطبع، لكن بها لمســـة من جمال لا يمكن تجاهلها أبداً.

جلســـت بجواري صـــامتة في البداية، لا تتفوه بأي كلمة، ولكن تطالع كتاباً يبدو أنه يأســـرها. وجذبني عنوان الكتاب، حيث كان عنوانه (ملائكة وشـــياطين)، فقلت لها:

- هل هذا الكتاب تأليف دان براون؟

نظرت إليّ متعجبة وقالت بعد برهة:

- وهل تعرفه؟
- نعم .. أنـا من عشـــاق هذا المؤلف العظيم .. وفي رأيي هو أعظم مؤلف روائي على الإطلاق.
- هذا عجيب.

فسألتها:

- ما الأمر؟ ما هو العجيب؟
- هكذا أنا تماماً.

فقلت باسماً:

- يبدو أن بيننا شيئاً مشتركاً.

فابتسمت ابتسامة مصطنعة، وأعادت القراءة في صمت.

وأثنـاء دخولي إلى الطـائرة، ومروري بين المقاعد، لاحظت وجودها على نفس الطائرة، في المقعد المجاور لمقعدي مباشرة، وحين رأتني قالت مبتسمة:

- أنت مجدداً.

ابتسمت في مرح وأنا أجلس في مقعدي، فقالت:

- لم تخبرني أنك ذاهب إلى للولايات المتحدة.
- لم تسأليني.
- وهل يجب أن أسألك لتخبرني؟

فقلت مدافعاً عن نفسي:

- وأنت لم تخبريني أنك ذاهبة أيضاً إلى هناك.

لكن ردها فاجأني كثيراً، حيث قالت:

- ولم قد أخبرك؟ هل أنت من أقاربي؟

إنها مجنونة ولا شك، هكذا فكرْت، فقلت لها:

- اعذريني .. لكني محتاج إلى بعض النوم، فإن التعب قد اســـتبد بي، واستهلك جميع قواي تقريباً.

وما أن قلت هذا الكلام حتى أرخيت رأسي على ظهر المقعد الخاص بي، وكدت أروح في نوم عميق، إلا أن تلك الفتاة سألتني:

- لماذا أنت مسافر إلى أمريكا؟

فتنبهت وسألتها:

- عفواً .. هل تتحدثين إليّ؟
- نعم .. ومن غيرك؟ لماذا أنت مسافر إلى هناك؟

- للعمل .. وأنتِ؟
- للاشتراك بالمسابقة الأولمبية المقامة ب(سولت ليك)[1]، هل سمعت بها؟
- لا .. لم أسمع بها.

أشارت إلى نفسها قائلة بشيء من الفخر:

- أنا بطلة الجمهورية في رياضة الجمباز، وممثلة مصر في هذه البطولة العالمية.

لم أكن مهتماً كثيراً بهذه المسابقة، لهذا قلت لها بفتور:

- حظاً طيباً.

فشكرتني، ثم رانت علينا لحظة من الصمت، قطعَتها بأن قالت:

- لا أراك متحمساً مثلي.
- بصراحة لست مهتماً برياضة الجمباز.
- كيف تقول هذا؟ إنها أمتع رياضة في العالم كله.
- لكِ أن تقولي ذلك .. فأنت بطلة مصر في هذه الرياضة.
- وماذا ترى أنت؟
- أرى أنها رياضة – واعذريني لرأيي – مملة نوعاً، كما أنها ليست متاحة للجميع.

---

[1] سولت ليك (بالإنجليزية : salt lick) هي مدينة تقع في مقاطعة باث، بولاية كنتاكي في وسط جنوب شرق الولايات المتحدة. تبلغ مساحتها ٢ كم مربع، وترتفع عن سطح البحر ٢٠٦ متر. واستضافت بالفعل أولمباد ٢٠٠٢ التي بدأت يوم ٨ فبراير، وانتهت يوم ٢٤ من نفس الشهر.

- ليس الجميع مؤهلين لممارســـة هذه الرياضـــة .. ولا أظنك مؤهلاً لممارسة أي رياضة.

ألقيت نظرة نحوها، ثم أشحت بنظري وأنا أبتسم ساخراً دون التلفظ بأي كلمة، فقالت وقد احتقنت:

- أتعلم أنك مستفز؟

ابتسمت ببرود، وأنا أقول لها:

- شـــكراً لك .. هل لكِ أن تدعيني أنم الآن؟ أنا لم أذق للنوم طعمٌ منذ الأمس.
- أقسم بأنك إنسان لا تطاق.

وتمتمت ببعض الكلمات التي لم أفهمها، كان الغضـــب باد على وجهها، لكن للمرة الثانية، أنا لا أبالي. ومجدداً أرحت رأســـي على ظهر المقعد الخاص بي، وأيضاً كدت أروح في نوم عميق، ولكن...

- اسمع يا...

فأجبتها وأنا أحاول تمالك أعصابي:

- ماذا تريدين الآن؟

قالت بنبرة تنم عن شيء من الندم:

- أنا آسفة لأنني تجاوزت حدودي معك.

فأسرعت وقلت لها:

- لا، لا .. لم يحدث شيء يوجب الاعتذار.

لكن نبرتها تغيرت سريعاً، وهتفت بعصبية:

- لكنك كنت تتصرف معي ببرود مستفز أيضاً.

فلم أملك إلا أن أضحك وأقول لها:

- أنت مجنونة.

فأشارت نحوي بسبابتها، حتى كادت تفتق عيني قائلة:

- احذر أن تناديني بالمجنونة.

أمسكت بإصبعها وتصنعت الغضب، لكني في قرارة نفسي كنت أضحك بأقصى قوة، وقلت لها:

- اسمعيني الآن .. دعيني أنم .. مفهوم.

* * *

استيقظت من نومي، بعد عدة ساعات، وقلت للفتاة الموجودة بجواري:

- كم من الوقت نمت؟

نظرت إليَّ بازدراء دون أن تجيب، ولاحظت مرور المضيفة بجواري، فاستوقفتها قائلاً:

- معذرة .. هل بقي الكثير من الوقت على وصولنا.

ابتسمت وقالت:

- لا يا سيدي .. ساعات قليلة ونصل.
- شكراً لك.

فابتسمت، وذهبت تتابع عملها.

في تلك اللحظة، اهتزت الطائرة بعنف، فصرخ الجميع، وصاح البعض:

- ما الذي يحدث؟

وعادت الطائرة تهتز بعنف، فسرت جلبة كبيرة في الطائرة، وأتى صوتٌ عبر مكبرات الصوت يقول في هلع:

- هنا الكابتن عامر أسعد....

وقبل أن يكمل اهتزت الطائرة بعنف أكبر، وصرخ الجميع ملتاعاً، واشتعلت النار في ذيل الطائرة ففصلته عنها، وراحت النار تلتهم الطائرة من الخلف إلى الأمام، بسرعة رهيبة، ورأيت تلك الفتاة بجواري تتأبط ذراعي، وتصرخ بارتياع شديد، فقلت لها:

- اسمعيني، سوف نخرج من هذه الورطة – بإذن الله.
- كيف؟ النار ستأكلنا.
- اهدأي .. سنكون بخير.

لكنها ظلت تصرخ بلا توقف.

حاولت تهدئتها وسط هذه الأجواء التي سببت الذعر للجميع، فنظرت مباشرة في عينيها وقلت لها:

- هل تثقين بي؟

نظرت إليّ بعينيها المذعورتين، وقالت:

- أبداً.

أمسكت بها، وساعدتها على النهوض، وأنا أقول:

- هذا ما توقعته.

ثم إني فعلت أكبر فعل مجنون في حياتي، فحملتها بين ذراعيّ، وانطلقت بأسرع ما يمكنني

نحو النار...

* * *

(٢) الجزيرة

كنت أقترب من النار بأقصى سرعة ممكنة، وتلك الفتاة متعلقة برقبتي وتصرخ بهلع:

- ستقتلنا يا مجنووووووووووووووون.

وفي تلك اللحظة، قفزت – وأنا أحملها – وسط هذا الجحيم. للحظة بدا أننا هالكون لا محالة، ولكن فجأة....

تجاوزنا صفحة النار تلك، لنجد أنفسنا في الهواء على ارتفاع يقدر بعشرات الكيلومترات.

ظللنا نسقط...

ونسقط...

وانفجرت الطائرة على مسافة بعيدة نسبياً عنا، ونحن مازلنا نسقط. وكلانا يصرخ بكل ما أوتي من قوة:

- آاااااااااااااااااااااااه.

مرت حوالي نصف دقيقة، وصاحت الفتاة بذعر مشوب بتعجب:

- ما زلنا نسقط!

- يا إلهي.
- آاااااااااااااااااااااه

وأخيراً ارتطم جسدانا بعنف بسطح الماء. وأعتبر نفسي أكثر شخص محظوظ في العالم؛ لأني لم أفقد وعيي في هذه اللحظة.

طفوت على السطح، وبحثت عن الفتاة حولي فلم أجدها. فكتمت أنفاسي، وغصت أسفل الماء، فوجدت جسدها يهوي نحو القاع، في استسلام تام منها. سبحت نحوها، وأمسكتها من ذراعها، وصعدت بها إلى السطح، ورحت أتلفت حولي ذات اليمين، وذات الشمال، باحثاً عن شاطئ قريب.

ونحو الأفق البعيد، لاحت أمام عينيَّ جزيرة ذات جبل ضخم، فاجتذبت جسد الفتاة نحوها، ولم تكد تمض دقائقٌ عشر، حتى كنا على شاطئ هذه الجزيرة. كانت الفتاة صامتة تماماً، لا يوجد ما يوحي على أنها ما تزال على قيد الحياة. أخذت أضغط على صدرها، ثم أنفخ الهواء في فمها، فيما يسمى بقبلة الحياة، وكأنه ضرب من الخيال، سعلت الفتاة، وقذفت بما ابتلعته من ماء نحو الخارج، ثم أخذت تسعل أكثر وهي تفتح عينيها ببطيء.

وفي تلك اللحظة كانت قواي قد خارت تماماً فتمددت بجوارها على الشاطئ، وأظلمت الدنيا في عينيَّ، واختفى كل شيء.

* * *

استيقظت وأنا لا أعرف كم من الوقت ظللت فاقداً الوعي، كانت السماء قد أظلمت، واندثرت حفنة من النجوم المتلألئة على صفحتها، لتصور لوحة من أبدع لوحات الكون.

نظرت بجواري فلم أر تلك الفتاة، حاولت النهوض مستنداً على يديَّ فشعرت بألم شديد يكاد يمزقهما، نظرت إليهما فإذ بهما قد احترقتا إلى ما فوق الساعد بقليل،

لكن الحمد لله أنها كانت حروق طفيفة. وأدركت أنها نتيجة لقفزتي المجنونة من الطائرة.

وإذ لم أستطع النهوض معتمداً على يداي ظللت مستلقٍ على ظهري، ومن بعيد، لاح لي ظلٌ يدنو مني...

أكثر...

وأكثر...

لو قلت لم أكن خائفاً، لقلت عليَّ كاذب، وبصـــراحة لم أكن خائفاً، بل كنت مذعوراً!

دنا مصـــدر هذا الظل مني، وبعد برهة، تبينت أنها الفتاة، فتنهدْت في ارتياح، وقالت لي:

- استيقظت أخيراً؟
- منذ متى وأنا نائم؟
- عشرة أيام.

فصرخت في ارتياع:

- عشرة أيام كاملة!

فضحكت وقالت:

- لا .. حوالي عشر ساعات.

قلت في شيء من الحدة:

- هل هذا وقت المزاح؟

فصاحت:

- لا تصـرخ في وجهي .. إن كان بيننا من يسـتحق التوبيخ فهو أنت .. انظر إلى أين أحضـرتنا؟ جزيرة منعزلة، في عرض المحيط .. ربما انتهى بنا المطاف كفريســة لبعض الوحوش الضــارية، وربما متنا جوعاً وعطشاً.

صحت بحدة:

- هل هذا جزاء أني أنقذتك من الطائرة؟ يا لك من جاحدة وناكرة للجميل.
- أنقذتني من الموت إلى الموت.

فقلت بحنق شديد:

- أنتِ حقاً لا تستحقين الشفقة.
- وأنت لا تستحق الحياة.
- حقاً؟
- أجل.
- هل يمكنكِ أن تتدبري أمركِ بدوني؟
- بلا أدنى شك.
- هكذا إذاً؟
- أجل.
- إذاً اذهبي .. هيا.
- سأذهب .. لكن أولاً عليك أن تعرف شيئاً واحداً.
- وما هو؟

همَّت بقول شيء ما .. لكنها تراجعت عن ذلك وقالت في خفوت لا يتناسب أبداً مع هذا الموقف العصيب:

- لا، لا شيء.

ثم تركتني وانصـــرفت. وبقيت أنا ممداً على ظهري، أحاول النهوض، فما أكاد أوشك على النجاح حتى تؤلمني يداي، فأسقط على ظهري من جديد.

ووسط الألم الشديد في ذراعيَّ، أخذت أشجع نفسي:

- هيا يا عادل .. يمكنك فعلها.

واستندت على يداي من جديد، فآلمتاني بشدة، وكدت أسقط على الأرض – ربما للمرة العاشـــرة على التوالي – لكن يداً أســـندتني، وعاونتني على النهوض، فاستطعت الاعتدال في جلستي أخيراً.

كانت قد عادت، وقالت لي بمنتهي الهدوء:

- أحضرت لك الطعام.

كان يبدو عليها الندم جلياً، فنظرت في عينيها مباشرة.

- لمَ تنظر إليّ هكذا؟

فأجبتها:

- بصراحة أنا لا افهمك .. في لحظة تكونين كالحمل الوديع .. واللحظة التي تليها تكونين كأنثى نمر مفترس.

صاحت بحدة:

- أنا أنثى نمر؟!
- هل ترين؟ هذا ما أتحدث عنه.

قالت بشيء من الحياء:

- أنا آســـفة جداً .. لقد مررت بظروف قاســـية جداً في الفترة الأخيرة و....

وأمسكت عن الكلام فجأة، ثم أردفت بعد برهة متسائلة في فظاظة:

- ومن أنت أصلاً لتتدخل في حياتي بهذا الشكل؟

غمغمْت وأنا أبتسم:

- مجنونة.

فقالت مغيرة دفة الحديث:

- انظر .. لقد أحضـــرت لك موزاً وتفاحاً .. الجزيرة مليئة بأصـــناف الثمار المختلفة .. حتى إني تراودني بعض الشـــكوك أحياناً أننا متنا وأن هذه هي الجنة.

غمغمت في خفوت:

- كيف نكون في الجنة وأنا مبتلىً بوجودك معي؟

سمعتني فقالت:

- أنت حقاً إنسان فظ وسخيف .. أتعلم أمراً .. لن أعطيك تأكل.
- حسناً أنا آسف.

فنظرت إليّ بحدة لما يقرب من دقيقة، ثم قالت أخيراً:

- لا بأس.

ودفعت إليّ بعض التفّاح، وأصابع الموز. حاولت أن أمسك هذه الفاكهة ..لكن يدي المحترقة عجزت عن ذلك، ولاحظت تلك الفتاة ذلك، فأخذت موزة، وقشرتها، ووضعتها أمام فمي محاولة إطعامي بيدها، في تلك اللحظة سرت في جسدي رعشة غريبة، وخفق قلبي، شعرت بشعور لم أشعر به من قبل.

ما هذا؟ هل أحببتها أم ماذا؟

لا، لا، هذا سخيف. ونفضت الفكرة عن رأسي تماماً.

أطعمتني هذه الموزة، وواحدة أخرى، ثم تفاحة، وتفاحة أخرى. يبدو أنني بدأت أستلطفها بالفعل. وللحظة شعرت بأنها قد تكون أجمل مما تبدو عليه.

لم تستمر هذه اللحظة طويلاً. إذ قالت:

- يا لك من شَرِه.
- لماذا تصرين على إفساد كل صورة جيدة لك في رأسي؟

التزمت الصمت ممتعضة .. فقلت باسماً:

- شكراً.

احمر وجهها خجلاً، وقالت بخفوت:

- على الرحب.

إنـها جميلـة حين تغضـــب، جميلـة حين تخجل، جميلة في كل حالاتها، إنها فتاة شابة جذابة، ذات روح طفولية رائعة.

قطعْت لحظة صمت سرت بيننا بأن سألتها:

- بالمناسبة .. لم تخبريني عن اسمك؟
- اسمي سارة .. سارة أمير السعيد.

ولأول مرة أستشعر أن اسم سارة هو أجمل اسم في الدنيا كلها.

- وأنت .. ما هو اسمك؟
- أنا ؟.. عادل .. عادل العربي.

ورانت لحظة أخرى من الصـمت .. في سـكون الليل .. وهب النسـيم مضـفٍ مزيداً من الرومانسية على هذه اللحظة.

لكن فجأة....

* * *

(٢) أخبار مشؤومة

(فصلٌ لا يرويه عادل)

«أيها السادة .. نأسف لإبلاغكم هذا الخبر السيء ...»

قالها مذيع النشرة الإخبارية، مقاطعاً الفيلم القديم، على القناة الأولى المصرية، دون إنذار.

فقالت السيدة فضيلة الراجحي:

- هذا ليس موعد الأخبار.

وقال زوجها، الأستاذ أحمد العربي، وقد مال بوجهه للأمام نحو التلفاز بترقب:

- بالتأكيد هناك حالة طارئة.
- قلبي منقبض .. لا أعلم لماذا.
- استر يا رب.

وأردف المذيع:

- أعلنت وزارة الطيران عن حادث انفجار طائرة الركاب المصرية (بي آر) المتجهة إلى الولايات المتحدة الأمريكية عبر الرحلة ٢٤٥ .. ولم ترد إلينا أخبار عن وجود ناجين أو حتى أشلاء لجثث الضحايا .. حيث حدث الانفجار فوق المنطقة الشمالية للمحيط الأطلسي .. وسنوافيكم بكل التفاصيل فور الحصول عليها .. للضحايا الرحمة .. ولأسرهم الصبر والسلوان.

صاحت السيدة فضيلة في ارتياع:

- ماذا يقول هذا الرجل؟ مؤكد هناك خطأ ما.

تصلب الأستاذ أحمد في مكانه والدموع تترقرق في عينيه، فصاحت:

- لمَ تبكي الآن؟ هل ما أخشاه صحيح؟

لم يتفوه زوجها بحرف، فصاحت:

- عادل؟!

ولم يكن الأستاذ أحمد وزوجته فقط هم من سمعوا هذه الأخبار وأنكبتهم. وإنما في المعادي، كانت هناك سيدة وقعت على الأرض مغشياً عليها فور سماعها هذا الخبر، وبعد أن استيقظت، وجدت أنها ترقد في سرير في المشفى.

سألت أخاها، الذي كان يقف بجوارها، ممسكة بذراعه في توسل:

- رشدي .. هل ما يقولونه صحيح؟

خفض رأسه في ألم وحسرة دون ان يجب.

- إذاً سارة .. ماتت؟!

ونطقت هذه الكلمة الأخيرة بصوت عال جداً، فأسرع أخاها يقول لها في اشفاق عليها:

- أرجوكِ يا سميرة .. أتوسل إليكِ .. لا تفعلي بنفسك وبنا هذا.

* * *

"آه يا عادل .. قلبي ينفطر .. أحمد .. أعد إليَّ ولدي يا أحمد."

لم يكن زوجها يجبها، فقد كان شـــارد الذهن، زائغ العينين، يزرف الدمع في صمت، هو أيضاً كان يحتاج – في هذه اللحظة – إلى من يواسيه.

* * *

"آاااااه يا سارة .. آاااااااه يا صغيرتي."

قالتها السيدة سميرة، وهي تركض في المستشفى، فقال أخوها:

- أرجوكِ يا ســميرة .. اهدئي .. لا نريد أن نفقدكِ أنت أيضــاً .. مؤكد أنها الآن في مكان أفضل من هذا بكثير.

قالت مولولة:

- أنا السبب .. أنا السبب.
- لا لستِ السبب يا سميرة .. هل أنتِ من أوقعت الطائرة؟!
- أنا التي شــجعتها ووفرت لها أكبر المدربين في رياضــة الجمباز .. حتى صـــارت بطلة الجمهورية .. وتأهلت لتلك البطولة الأولمبية المشــؤومة في أمريكا .. ولولاي لما صـــارت بطلة .. ولكانت بين أحضاني الآن.

وفي هذه اللحظة دلف الطبيب إلى الداخل وأعطاها مهدئاً قوي المفعول.

وخرج رشدي من الغرفة، وعيناه تذرفان في صمت حزناً على سارة... وأمها.

* * *

(٤) المفترس الأول

كانت لحظة رومانسية بحق .. لكن فجأة، سمعت صوتاً قادماً من خلفنا، من داخل هذه الأشجار، التفت مسرعاً، وسرعان ما لاحظت خيال شيء يركض مسرعاً.

- إلام تنظر؟

لم أردها أن تلتاع، فقلت لها وأنا أرسم ابتسامة مصطنعة على وجهي:

- لا، لا شيء.
- لقد تجولت في هذه الغابة بينما كنت نائماً.
- وهل كانت جميلة؟

قالت بافتتان:

- أوه، يا إلهي .. كانت رائعة الجمال .. رأيت طيوراً زاهية الألوان، ومختلفة الأشكال .. ورأيت عصفوراً صغيراً تطعمه أمه بمنقارها.
- ألم تصادفي أية حيوانات؟
- لا .. لم أتوغل للداخل كثيراً .. خشيت أن أقابل أي نوع من الحيوانات المفترسة.
- حسناً فعلتي.

تمطت، وتثاءبت، وقالت:

- أشعر بالنعاس الشديد.
- يمكنك أن تنامي وأنا سأظل أحرسك طوال الليل .. هلا ساعدتني في الوصول إلى هذه الصخرة؟

أومأت برأسها، وبعد أن ساعدتني قلت لها:

- شكراً لك.
- على الرحب.

وألقت بجسدها على الرمال، وراحت في نوم عميق.

ورحت أراقب النجوم، ورأيت شهاباً يمر أمامي في سرعة في الأفق، كان القمر بدراً، وفكرت كيف حال أمي وأبي الآن؟ هل وصلهما خبر انفجار الطائرة؟ شعرت بالقلق المطرد عليهما. وبعد وقت ليس بالطويل تثاقلت رأسي، وغلبني شبح النعاس، فنمت.

استيقظت مع الشعاع الأول للشمس. وشعرت بتحسن كبير في ذراعيّ فاستندت عليهما ونجحت بمساعدتهما في النهوض على قدميّ. وفي هذه اللحظة، استيقظت سارة، تمطت في مكانها وقالت:

- صباح الخير.

إنها أجمل (صباح خير) سمعتها في حياتي. أجبتها:

- صباح النور .. هل نمت جيداً؟
- ظهري يؤلمني قليلاً .. لكن نعم .. نمت نوماً هنيئاً .. لقد استطعت النهوض.

ابتسمت وأنا أنظر إليها، فقالت:

- أشعر بالظمأ الشديد.

ماذا أقدم لها؟ ليس هنا من ماء يصلح للشرب، وأنا أيضاً أشعر بالظمأ.

قلت لها:

- علينا أن نبحث فوق هذه الجزيرة عن بحيرة أو نهر عذب أو أي مصدر ماء عذب يصلح للشرب.

فأشارت للخلف قائلة:

- لكن من يدري ما قد نواجهه داخل هذه الغابة .. ربما تصادفنا وحوش مفترسة.
- احتمال وارد بلا شك .. لكننا لا نملك خيار آخر .. إن مكثنا في مكاننا ولم نبحث عن مصدر للماء العذب، فقد نهلك من العطش.

قالت معترضة:

- ولكن....

ثم تنهدَت في استسلام قائلة:

- حسناً لا بأس.
- جيد .. هيا بنا.

وسرنا معاً داخل هذه الغابة، وكانت جميلة بحق، تماماً كم أخبرتني، رأينا الطيور الزاهية، ورأينا أنواعاً غريبة من الطيور سألتني عن نوعها فلم أملك الإجابة، ثم توغلنا أكثر داخل الغابة، ورأيت النباتات البرية الجميلة، وكنت أعلم بلا شك أن بعضها خطِر، فالتزمت الحذر في سيري، وهذا ما لم تفعله سارة، إذ كانت مبهورة بجمال هذه الغابة. قالت لي والسعادة بادية على وجهها:

- حقاً .. ما أجمل الطبيعة!

ما كادت تتم عبارتها حتى شعرت بأن شيئاً ما يراقبنا، التفت ذات اليمين وذات الشمال، لم أجد شيئاً. أرهفت أذني للسمع، كادت سارة تقول شيئاً ما، أسكتها، سألت هامسة:

- ما الأمر.
- شيء ما يراقبنا.
- يا للهول.
- صهٍ يا سارة.

ولاحظت أن بعض النباتات الممتدة على يسارنا تتحرك ببطيء. هناك شيء ما قادم نحونا. دققت النظر فيما يتحرك بين النباتات. وبصعوبة رأيت بعض الشعر الكثيف الذي يغضي هذا المخلوق.

- يا إلهي .. اركضي يا سارة.

قلت ذلك ملتاعاً، فقالت لي:

- ما الأمر؟

أجبتها وأنا وأجذب يدها وأركض:

- انه أسد.
- يا إلهي الرحيم .. أسد؟

ولم يكن أي أسد، لقد كان أضخم بشكل ملحوظ من الأسود التي نراها في حديقة الحيوان، وكان مكسواً بشعر أبيض كثيف، وأنيابه أضخم بعض الشيء من الطبيعي.

ورحنا نركض معاً بأقصى سرعة لدينا، وسمعنا صوت زئيره المرعب وهو يتبعنا. كانت سارة تصرخ وهي تجري.

صحت فيها:

- توقفي عن الصراخ .. هكذا لن يفقد أثرنا أبداً.

فتوقف صراخها، ولم يتوقف فزعها، ولا فزعي. وفكرت: لا يمكننا أن نركض إلى الأبد، ونحن لسنا أسرع منه.

نظرت بجانبي، فإذ بجرف ينتهي إلى نهرٍ جاري. ويمتد على طول الجرف حزام من الأشجار. قلت لسارة:

- هل تستطيعين السباحة؟
- ما هذا السؤال الغريب؟

أعدت السؤال وأنا أصيح بصوت أعلى:

- هل تستطيعين السباحة؟
- نعم .. لماذا؟

وقبل أن تنهي تساؤلها، دفعت بها بين الأشجار، فسقطت عن الجرف لكنها لم تسقط في النهر. إذ اصطدمت بصخرة حالت بينها وبينه، كان هدفي من إسقاطها من فوق هذا الجرف هو أن أبعدها عن الأسد، وأجعله يطاردني وحدي، لكن الأسد نزل هذا الجرف بمنتهى السرعة، يريدها.

لقد فشلت خطتي.

ويبدو أن سارة ستصير عمّا قريب في عداد الأموات.

(٥) المفترس الثاني

نزل الأسد أسفل الجرف ورحت أتلفت حولي وأتساءل كالمجنون:

- ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟

ثم إني رأيت بعض الثمار غريبة الشكل ساقطة عن إحدى الأشجار، كانت صلبة، والواحدة منها بضعف حجم قبضة اليد، أمسكنها، وقذفت بها نحو الأسد، فارتطمت بظهره، نظر نحوي بغتة ثم تابع نزول الجرف خلف سارة. أمسكت ثمرة أخر وقذفته بها ، لم تصطدم به، قذفته بثالثة فأتت في مؤخرة عنقه، فنظر نحوي بغضب في اللحظة التي قذفته بثمرة رابعة، فأصابته في وجهه تماماً، بمنتهى القوة.

فكشر عن أن أنيابه في غضب بلغ أقصاه، ثم إنه زأر بكل ما أوتي من قوة، وركض نحوي بمنتهى السرعة.

يا إلهي، لم أحسب حساب هذه اللحظة.

ركضت كالمجنون والأسد خلفي، يقترب مني أكثر...

وأكثر...

هجم عليّ في اللحظة التي انعطفت فيها ناحية اليسار، فلم يصبني. ظل يركض خلفي بمنتهى السرعة. انعطفت إلى اليمين. حيث بعض النباتات الكبيرة، واختبأت بينها بعض الوقت. معتقداً أن الأسد قد فقد أثري.

بعد فترة من الاختباء استرقت النظر من بين النباتات لأتبين هل رحل الأسد، فما كدت أنظر للخارج حتى كان وجهي مباشرة أمام وجهه.

يا إلهي .. ما هذا الحظ؟!

وقعت على ظهري، ورحت أدفع جسمي بقدمي للوراء، هجم الأسد عليّ، فركلته ركلةً يائسة للتخلص منه، لكني تفاجأت بقوة ركلتي، إذ سقط الأسد على إثرها. هذه فرصتي، نهضت وأطلقت قدمي للريح، ولم تمر أكثر من ثانية وربع حتى كان الأسد مجدداً خلفي.

يا إلهي .. ما العمل الآن؟

رأيتني قد عدت إلى مسار النهر، فهتفت وأنا ألقي بنفسي بداخله:

- رائع.

ثم إنني غصت في أعماق هذا النهر، ولم أجسر على رفع رأسي حتى وأنا متأكد أن الأسد ليس خلفي. ورحت أسبح في الأعماق، متوارياً عن أنظار الأسد، حتى تيقنت أني صرت بعيداً عن أعين الأسد، فصعدت إلى سطح النهر أملأ رِأتيّ بالهواء النقي. ثم ملأت معدتي بالماء العذب.

قبل أن أخرج من النهر، نظرت في كل اتجاه لأتبين هل هناك من وحش آخر يرقبني. فلما تبينت أني في مأمن خرجت على الفور.

عليّ الآن أن أجد سارة، لكن أين أبحث عنها؟ آمل أن تكون بخير.

ورحت أسير بمحاذاة النهر، ليس لي وجه معينة لكني آمل أن يجانبني بعض التوفيق لأعثر على سارة.

ومن بعيد .. رأيت النباتات تنشق عن شيء ما يركض بمحاذاتي على بعد أمتار مني، دققت النظر فإذ به إنسان هذا الذي يركض. وسمعت صوت صراخ أنثوي أعرفه جيداً.

- سارة.

وهرعت إليها مسرعاً. واستطعت أن أعترض طريقها وأوقفها:

- سارة .. ما الأمر؟
- اجري يا عادل.
- لماذا؟
- إنه قادم خلفي .. هيا نفر بأرواحنا.
- لكني لا أسمع زئيره...

لم أكد أتم عبارتي حتى لاح لي على بعد أمتار قليلة. اتســعت عيناي فزعاً. هل هذا الكائن حقيقي؟! إن الأسد يبدو أمامه حيوان مسالم.

كان حيوان ضـخم، أضـخم من الأسـد. له هيئة كهيئة الببر[٢]، ويزيد عليها نابان طويلان يبرزان من فكه العلوي، ويتدليان لأسفل، طول الناب الواحد لا يقل عن عشرة سنتيمترات أو أكثر.

ارتعدت فرائصي لمرأى هذا الوحش، وجذبتني سارة من يدي وهي تصيح:

- اركض بأقصى سرعة لديك.

---

[٢] الببر: من فصيلة السنوريات، يخلط الناس بينه وبين النمر كثيراً، يختلف عن النمر أنه ذا خطوط عرضية على جسمه، أما النمر فهو مرقط.

رحنا نركض في هلع جنباً إلى جنب، وهذا الوحش يتبعنا، لم يكن بسرعة الأسد. لكنه ليس بطيئاً على كل حال.

صحت ونحن نركض:

- ما هذا الوحش الفتاك؟
- إنه الببر السيفي .. حيوان طغى الاعتقاد على أنه انقرض منذ ملايين السنين.
- وهل هذا وقت العودة للحياة .. الآن؟

أخذنا ننعطف يمنة ويسرة في محاولة لتضليل هذا المخلوق، لكنها كانت محاولات فاشلة منا. أخيراً وجدت تلاً مرتعاً به الكثير من المنعرجات.

- تعالي معي.

جذبتها من يدها بمنتهى السرعة صاعدين هذا التل. وألقيت نظرة لأسفل، لأجد هذا الببر واقفاً ينظر إلينا نظرة باردة، لا تنم عن أي شعور.

- لمَ لا يصعد خلفنا؟

أجابتني سارة:

- ربما لا يستطيع.
- أتمنى.

وصلنا إلى القمة التي لم تكن عالية جداً، ووقفنا نلتقط أنفاسنا قليلاً. وقلت وأنا لا أكاد ألتقط أنفاسي:

- نحن بأمان هنا.

لكني كنت مخطئاً هذه المرة.

صرخت سارة:

- يا إلهي الرحيم .. إنه يصعد.

نظرت نحوه فإذ به يصعد بسلاسة وبدون أي معاناة.

غمغمت:

- تباً.

ثم إني أمسكت بسارة من معصمها وقلت لها:

- أسرعي.

واستجابت لي، فنزلنا هذا التل من الناحية الأخرى. كنا ننزل بأقصى سرعة حتى زلت قدمنا حين اقتربنا من الأرض فسقطنا....

* * *

(٦) على وشك الهلاك

كان سـقوطاً عنيفاً، رغم أن المسـافة لم تكن أبداً كبيرة. ومن حسـن حظنا هذه المرة أننا سقطنا في بركة من الوحل.

لم تكن البركـة عميقـة أبـداً، لكنهـا خففت عنـا كثيراً من قوة السـقوط. تلطخنـا بالكامل. وصاحت سارة وهي تحرك يديها للجانبين بقرف:

- يعععع .. ما هذا؟
- هيا بنا.

حاولت سارة النهوض لكنها سقطت متأوهة من الألم.

- ما الأمر؟
- ساقي .. أظن أنها كُسرت.
- هيا سأساعدك.

وجثوت على ركبتي أحاول مسـاعدتها، ولكن قبل أن نرفع رؤوسـنا سـمعنا زمجرة قادمة من أمامنا.

تصـلبت الدماء في عروقنا، ورفعنا رؤوسنا ببطيء شـديد، فإذ به واقف أمامنا، إنه الأسد الذي كان يطاردنا قبلاً.

همست سارة في فزع:

- ارحمنا يا إلهي .. الأســد من أمامنا، وهذا الببر ســيفي الأنياب من خلفنا .. أنقذنا يا رب.

ولم يعد لنا أي خيار، إذا تقدمنا، سـيفترسـنا الأسـد. وإذا عاودنا صـعود التل، سيفترسنا هذا المخلوق المرعب، ذو النابان الفتاكان.

كـانـت بركة الوحل التي ســقطنا بها غير عميقة مطلقاً، إذ أن عمقها لا يتجاوز عشـرين من السـنتيمترات، وواضـح أنها لن تمنع الأسـد من التقدم نحونا. وكم كان كلامي صــحيحاً، إذ بدأ يتحرك باتجاهنا. نزل إلى الوحل، وأخذ يقترب منا ونحن بلا حراك. اقترب أكثر... وأكثر...

وأكثر...

حتى وصل إلينا تقريباً، كان يقف على بعد نصف متر منا.

توارت سـارة خلف جسـدي، وجميع فرائسـها ترتعد، وأنا لم أكن أفضـل حال منها. ثم إن الأسـد زئر بصـوته المرعب، مما زاد الطين بلة، واسـتعد للهجوم علينا.

وهمست سارة في فزع:

- نحن هالكون لا محالة.

لم أســتطع طمأنتها، إذ أني كنت أدرك كم هي محقة فيما تقول. لن تمر ســوى ثانية أخرى، ونكون في عداد الأموات.

ها هو الأسد..

ثنى أقدامه قليلاً، وعاد بنصف جسده العلوي للخلف قليلاً..

وبرزت أنيابه..

إنه يستعد للهجوم علينا حالاً...

* * *

(٧) صراع المفترسين

ونحن لا نجد مكاناً نفر إليه، كاد الأسد يهجم علينا، لقد أصبحنا في نطاق سيطرته الآن. نعم أنا معروف بين أصدقائي بأني أشجعهم، لكن أيشفع لي هذا عند هذا المفترس!

تأهب للهجوم، لا مفر لنا .. إطلاقاً. نطقت الشهادتين، وتأهبت للموت.

لكن فجأة...

تسمر الأسد في مكانه، إذ دوى صوت زئير مرعب ومخيف، كان عالٍ جداً، عالٍ لدرجة أننا – أنا وسارة – اضطررنا لسد آذاننا تحاشياً لهذا الصوت الذي يصم الآذان.

كان هذا الزئير قادم من خلفنا، من أعلى التل. فنظرنا، فإذ به هذا الببر السيفي يقف على القمة في منتهى الشموخ والإباء.

كم هو مرعب هذا المخلوق.

عاد الأسد للخلف بضع خطوات، لكن إباءه وكبرياءه الفطري منعاه من الانسحاب، مال الأسد ناحية اليمين وزأر، ومال ناحية اليسار وزأر. وقالت سارة:

- انه يستدعي بعض الأسود الآخرين.

نعم. كانت محقة، فقد ظهر بعد أقل من دقيقة أســد من ناحية اليمين، ولبؤة من ناحية اليسار.

الموقف كان واضـحاً ولا يحتاج إلى تفسير، سـتكون هناك معركة ضـارية بعد قليل. لكن الغلبة الآن – كما أعتقد – ستكون للأسود، إذ أنهم ثلاث، وهذا السيفي وحده.

كانت الأســود تزأر على نحو مخيف، وهو أيضــاً يزأر بصــوت أكثر إخافة ورعباً. وانتهزت هذه الفرصــة وجذبت ســارة من يدها وتســللنا فارّين من هذه المعركة. وأرحت ظهر سارة إلى جزع شجرة بعيدة نسبياً، وكانت قدمها تنزف فجذبت أحد أكمام قميصي، حتى قطعته، وربطت بها قدمها المصابة.

في هذه اللحظـة رأينـا الببر الســيفي، وهو ينزل نحو الأســود الثلاثـة بمنتهى الشجاعة والاندفاعية. ووقف وجهاً لوجه أمامهم، داخل بركة الوحل.

دنـا منهم، ودنوا منـه، ثم بعد لحظـة تردد هجم الثلاثـة عليـه، في وقت واحـد، عضّــه الأســد الأول في ظهره، والثاني ضــربه بمخالبه الحادة على وجهه، وعضته اللبؤة في إحدى قدميه الخلفيتين، وكان يزأر من الألم.

وعلى الرغم من ألمه، دفع الببر اللبؤة بعيداً بقدمه القوية، وغرس نابيه الطويلين القويين في ظهر الأسـد الذي كان يعضـه بظهره، فأردي الأسـد أرضـاً، وتركه يعـاني النزع الأخير. وضــرب الأســد الـذي كـان واقفاً أمامه بمخالبه القوية، فأوقعه أرضاً والدم يسيل من وجهه.

أما اللبؤة فعادت تقاتل من جديد باستبسـال، وهو يضربها بمخالبه فتعود بمنتهى الشراسة.

قلت لسارة وأنا أساعدها على النهوض:

- هيا أسرعي .. أشعر أن هذه المعركة ستنتهي عما قريب، قريب جداً.

ونهضت معي، تعرج في مشيتها، لكن رغم كل شيء كنا نسير بسرعة كبيرة، كي لا يتمكن الفائز في هذه المعركة – أياً كان – من الظفر بنا، فأنا لا أحب أن أكون وجبة دسمة، ليس هذا اليوم.

سرنا مسافة لا تقل عن عشرة كيلومترات، مبتعدين عن هذه المنطقة، المأهولة بكل من يمكن أن يضيفنا لقائمة طعامه. كان الليل قل أرخى ستائره علينا، وقالت سارة بمعاناة:

- لا أستطيع أن أكمل .. يكاد الجوع والعطش بالإضافة إلى التعب يفتكون بي.

وإذ شعرت بالشفقة عليها، أخذت أمشط المنطقة بنظري، بحثاً عن مكان آمن يؤوينا هذه الليلة، ووجدت على يسارنا ببضعة أمتار بعض الصخور المتباينة في الحجم والشكل.

- انتظريني هنا.
- إلى أين أنت ذاهب؟
- سأعود حالاً .. لا تقلقي.

وصعدت فوق تلك الصخور، وسارة تهتف من بعيد بما يشبه الهمس:

- كن حذراً.

لم تكن هذه الصخور بالارتفاع الشاهق، ولم يحتج صعودها إلى معاناة من قِبلي، وما كادت تمر دقيقتين حتى كنت وافقاً فوق قمة أعلى صخرة بينهم. وكان هدفي من ذلك أن أحدد مكاناً آمنا، ويحتوي على طعام وماء.

ووجدت ما كنت أصبو إليه.

بحيرة صغيرة، خلف الصخور، يبدو أن مياهها صالحة للشرب.

ناديت على سارة، فأجابتني:

- ما الأمر؟
- تعالي هنا.

وأقبلت سـارة، ولم تقدر على صـعود الصـخور فعبرت من حولها. ونظرت بانبهار هاتفة:

- واااو.

كان كل شيء في هذه الجزيرة يبهر سارة على نحو عجيب، قلت لها:

- يمكنك أن تشربي من هنا.
- هل أنت جاد؟!

كان في سؤالها نبرة سخرية، فأجبتها وأنا أملأ راحتي بالماء وأشرب:

- إنها مياه رائعة.
- هل هي جوفية؟
- رغم أني لست خبيراً .. لكن أظن ذلك.

اقتربت تعرج، وفي شـيء من التردد مدت يدها نحو الماء، وملأت راحتها، ثم قربت الماء إلى فمها، وبشـيء من النفور ارتشـفت ما بها بيدها، ثم إن الماء أعجبها مذاقه، فانكفأت على البحيرة ترتشف منها بنهم شديد، وبعد أن ارتوت، استلقت على الأرض وكأنما استراحت بعد عناء أخيراً...

ولم تلبث أن غطّت في نوم عميق.

اعتزمت على أن أسهر طوال الليل أحرسها من الأخطار، وأتيت إلى صخرة بحجم المقعد الصغير، فجلست عليها، وأردفت ظهري إلى صخرة ضخمة خلفها، واستطاع سلطان النعاس أن يخدعني، فرحت أنا أيضاً في نوم عميق.

قبيل الفجر بلحظات، فتحت عينيّ بغتة، واستطعت أن أرى من بعيد، من بين الأشجار، عينان ترقباننا، ثم لم تلبثا أن اختفتا على الفور.

هل كنت أحلم؟ أم أن ما رأيته حقيقة؟

افترضت أني رأيت هاجساً من النوم، كان هذا الافتراض مفضلاً بالنسبة لي، حيث كنت خائر القوى ولا أقوى على الحركة.

راحت جفوني تتثاقل رغم محاولاتي المستميتة في ابقائها مفتوحة. ولم أشعر بشيء إلا بشعاع الشمس الساقط على عينيّ. أفقت فلم أجد سارة مضطجعة في مكانها، رحت أنادي باسمها:

- سارة .. سارة .. أين أنت؟

وكنت أقلب عيني في المكان بحثاً عنها، والقلق يزداد في قلبي على نحوٍ مضطرد. راودتني هواجس جعلت قلبي يكاد يقفز من صدري فزعاً ورعباً.

أين هي الآن؟

ربما أخافها شيء ما...

والأدهى...

ربما افترسها وحش ما..

أزحت هذا الهاجس من رأســـي، أو على الأقل حاولت. لكن القلق كاد يفتك بي، وفجأة....

* * *

(٨) الفاتنة

في قلقي البالغ على سارة، رحت أدعو وأتوسل:

- يا إلهي ساعدني كي أجدها.

وسرت مسافة بضعة أمتار، إلى أن وصلت للنهر الجاري، وفجأة اضطرب سطح النهر، وبرزت على وجهه سارة، تتناثر حبات الماء المتلألئة حول خصلات شعرها اللامع، لأول مرة ألاحظ أنها جميلة الوجه بهذا الشكل.

يا إلهي!

وتواريت خلف الصخور حتى لا أسبب لها الحرج. كانت واضعة ثيابها – جميع ثيابها – على صخرة قريبة من النهر.

كيف لم الحظ وجود هذه الثياب هنا من قبل؟

نظرت في كل الاتجاهات مد بصرها، أظنها كانت تبحث عني، لا تريد أن تبدو أمامي دون ثياب، وحين لم تجد لي أي أثراً، خرجت من الماء متجهة بسرعة نحو ثيابها.

من مخبئي خلف الصخور، أطبقت على عينيّ، وبعد دقيقتين أو أكثر، استرقت نظرة فإذ بها قد ارتدت جميع ثيابها، انتظرت دقيقة اخرى في مخبئي، ثم تظاهرت أني قادم من بعيد، وتظاهرت أيضاً بأنني مستيقظ من النوم حالاً، وسألتها بلهفة مصطنعة:

- أين كنتِ يا سارة؟ لقد شعرت بالقلق حين لم أجدك.
- لا تقلق .. أنا لســت فتاة صــغيرة .. المهم الآن .. ألا يوجد طعام في الجوار؟

كنت أعلم أنها تغير الموضـوع عن قصـد، لكنها معذورة، هل تقول لغريب أنها كانت بالقرب منه تسـتحم عارية؟! بالطبع هذا لا يجب. كنت أقدر هذا جيداً، لذا أجبتها عن سؤالها:

- الطعام في كل مكان حولنا .. يمكنك رؤية هذا بنفســك .. الأشــجار مليئـة بـالفاكهـة .. وبـالتـأكيد توجـد حيوانات كثيرة على هذه الجزيرة تصلح للأكل .. يمكنني الذهاب للصيد إن أردت تناول اللحم.
- هذا رائع .. لقد اشتقت للحوم كثيراً.

فأردفت في مكر ودهاء:

- ولكن هل تستطيعين الطهو؟

وكأني صعقتها بهذا السؤال، فقالت:

- أظن أن الفاكهة لا بأس بها في الوقت الراهن

* * *

(٩) فكرة للعودة إلى الديار

مرت عدة أيام ونحن على هذه الجزيرة، نأكل الفاكهة، ونشرب من ماء البحيرة، وخلال هذه الأيام، استطعنا بناء ما يشبه الخيمة باستخدام بعض فروع الأشجار، وورق عريض لنبات أخضر اكتشفته سارة على ضفاف النهر. كانت سارة تبيت في الخيمة طوال الليل، وأنا أنام بها طوال النهار. واستطعنا إشعال النار للتدفئة. أحياناً كنّا نجلس معاً بالساعات نحدث عن حياتنا الماضية، فلما طال جلوسنا معاً، ألفنا بعضنا، وشيئاً فشيئاً، بدأ كل منا يثق في الآخر، ويحدثه عن حياته الخاصة.

وكانت سارة تعد الأيام التي قضيناها على الجزيرة، حتى أنها كانت تأتيني يومياً لتقول لي:

- نحن على هذه الجزيرة منذ عشرة أيام...
منذ عشرين يوماً...
مر شهر على وجودنا هنا...

وفي إحدى الليالي، بينما كنت جالساً حول النار أتدفأ بها، خرجت سارة من الخيمة، وجلست بجواري، وبدون أي مقدمات، قالت بلهجة أقرب للبكاء:

- أتعلم يا عادل .. أنا أشتاق لأمي كثيراً.

نظرت إليها وإلى الدموع التي تتراقص في عينيها ثم أبعدت نظري عنها وأنا أقول:

- وأنا أيضاً أشتاق لأمي وأبي .. تُرى أهما بخير؟

ثم عدت أنظر إليها وأنا أتابع:

- لكن في الوقت الراهن ليس بوسعنا عمل أي شيء.

تسللت دمعة على خدها، فابتسمت لها بإشفاق، وقلت:

- اسمعيني جيداً يا عزيزتي .. مؤكد أن والدتك بخير، وأنها تشعر بأنك بخير .. وحين نعود ستجدينها باستقبالك فرحةً مهللةً.

نظرت إليّ كقطة صغيرة مسكينة:

- أتظن ذلك حقاً.
- بلا أدنى شك .. وحين نعود – بإذن الله – فلا تنسيني .. اتفقنا.

ابتسمت كطفلة صغيرة تملأ عينيها البراءة، وبِرَد فعل تلقائي، أحاطتني بذراعيها، وقالت في لهجة أقرب للهمس:

- شكراً لك.

ربَّتُّ على ظهرها دون أن أنبس ببنت شفة. ونهضت فرحةً، ثم صاحت وهي تدخل غرفتها:

- ليلة سعيدة.

في صباح اليوم التالي، دلفت إلى داخل الخيمة، كانت هناك، نائمة كطفلة وديعة، وعلى ثغرها ابتسامة آسرة. دنوت منها، أيقظتها، فتحت عينيها بتثاقل، وتمطت في مكانها ثم قالت:

- صباح الخير.

ابتسمت وقلت لها:

- صباح النور .. يبدو أنك نمت نوماً هنيئاً.

تمطت وقالت:

- نعم .. كانت ليلة رائعة.
- أنا سعيد لسماع ذلك .. المهم أن تنهضي الآن .. فلدينا عمل شاق هذا اليوم.
- أي عمل؟
- سوف ترين.

وبعد أن تناولنا فطورنا التقليدي – الموز والتفاح – أمسكتها من رسغها، وسرت بها مسرعاً.

- إلى أين تأخذني يا عادل.
- صبراً يا سارة.

وبعد برهة كنا واقفين أمام غابة من أشـــجار الخيزران (البامبو). كانت جميلة بشكل لا يصدق، حتى أن سارة هتفت – كما تفعل دائماً – بانبهار:

- واااو .. ما هذا المكان؟
- أعجبك؟
- بالتأكيد .. انه رائع.

قلت لها:

- يسعدني أنه أعجبك.

فابتسمت لي، ثم إنها أخذت تتأمل في هذه الغابة الغناء. فأردفت قائلاً:

- لكن لسنا هنا لنتأمل في جمالها.
- إذاً لماذا نحن هنا؟
- أخبرتك قبلاً .. لدينا عمل شاق.

فنظرت إليّ متسائلة عن ماهية هذا العمل، فأجبتها:

- سوف نقطع بعض هذه الأشجار.
- نقطعها؟! لكن لماذا؟
- سوف نرحل من هذه الجزيرة.

تهللت أساريرها وهتفت:

- حقاً ما تقول؟

ثم إن ابتسامتها خبت وأنشأت تسأل:

- لكن كيف؟

أجبتها وأنا أتصنع الثقة فيما أقول:

- سوف نصنع قارباً.

ارتفع أحد حاجبيها عالياً وهي تقول في تعجب:

- ماذا؟!
- سنصنع قارباً.

بلهجة جافة سألتني:

- هل أنت نجار؟
- نجار؟! بالطبع لا.

فرمتني بنظرة تنم عمَّا تشعر به تجاهي في هذه اللحظة. فقلت لها:

- ليس هذا ما توقعته منك .. توقعت أنك ستهتفين وتهللين حين أخبرك بهذه الفكرة.
- هل تظننا في قصة من قصص الخيال العلمي؟!.. أفق .. إننا في عالم الواقع.

صحت:

- عالم الواقع؟! هل حقاً تسمين هذا بعالم الواقع؟! أنتِ من يجب أن تُفيقي .. أُسود تريد التهامنا .. ووحوش من قبل التاريخ .. أعني .. ببر سيفي؟! حقاً؟!

ثم صمتت قليلاً قبل أن أستطرد:

- أأخبرك أمراً؟ أحياناً أظن أنني مت .. وأحياناً أتصور أنني في غيبوبة عميقة .. وأن ما يحدث لي ليس إلا مجرد أحلام وخيالات يصورها عقلي الباطن.

كانت واقفة أمامي مبهوتة، لم تتوقع أن أحدثها بهذه اللهجة القاسية، وبعد دقيقة أو اثنتين، بدأت أشعر بالذنب لتحدثي معها بهذه القسوة، فحاولت أن أصحح الموقف فقلت لها بهدوء وعلى ثغري شبح ابتسامة:

- سارة .. أنا آسف حقاً .. لا أعلم كيف خاطبتك بهذه الطريقة .. لكنك دفعتني إلى ذلك .. على كلٍ .. سأضع الخيار هذه المرة بين يديك ..

إن شـئتِ صـنعنا قارباً لنحاول النجاة بأنفسـنا من هنا .. وإن شـئتِ مكثنا هنا .. ما قولك؟

صـمتت في البداية ولم تجب، شـعرت أنني بالغت في حديثي معها كثيراً، رغم كل شـــيء، هي فتاة. أظن أنها كانت قد بدأت تنجذب إليّ، لكن بعد الذي حدث، أنا متأكد من أنها فقدت كل اهتمامها بي.

بعد صيام طويل عن الكلام، التفتت إليّ وقالت بنبرة هادئة بها لمسة من الحزن:

- أتعلم؟ ربما في كلامك شـــيء من المنطق .. ربما انا المخطئة في نهاية الأمر .. أنا آسفة.

ابتسمت في حنان قائلاً:

- لا، لا .. لا تعتذري .. لم يحدث شيء.

فصاحت فجأة:

- لكن ما كان لك أن تحدثني بهذه الطريقة .. إياك أن تكررها مفهوم؟

كنت انظر إليها وأبتسـم. ابتسـامة نابعةً من أعماق قلبي. إنها مجنونة حقاً. وهذا ما أحبه فيها!

- إذاً ماذا تقترحين؟

أخذت تفكر، وتفكر وهي تنقر على ذقنها بسـبابتها، ثم همّت بقول شـــيء ما، لكنها تراجعت عن ذلك وعادت تفكر من جديد، وقالت فجأة:

- حُسم الأمر .. سوف نبني قارباً.

قلت بمرح وأنا ألقي التحية العسكرية:

- عُلم ويُنفَذ أيتها القائدة المجنونة.

ابتسمَت قائلة:

- مجنونة؟ أنا مجنونة؟

وأخذت تركض خلفي – مازحةً – وأنا أمامها، دخلْت بين أعواد الخيزران، فتبعتني. كان قد مرّ عليّ وقت طويل دون أن أمرح، حتى أني شعرت في وقت ما ان فقدت القدرة على المرح والمزاح.

وأثناء جريي أمامها، إذ فجأة دوت صرختها عالية.

* * *

(١٠) أنقذوا الفيل الصغير

توقفت والتفت إليها، فوجدتها قد سقطت على الأرض. ركضت نحوها مسرعاً وجثوت على ركبتي وسألتها إن كانت بخير، فأجابتني:

- أجل انا بخير .. لقد زلت قدمي في هذه الحفرة.
- سأساعدك على النهوض .. هيا.

وسرنا معاً حتى خرجنا من غابة الخيزران هذه. وطوال الطريق كنا نتحدث فقد قالت:

- شعرت بأنك كنت قلقاً عليّ كثيراً.

أصبت بشيء من الإحراج، فقلت لها مبرراً قلقي:

- نعم .. لأنك .. رفيقتي الوحيدة في هذه الجزيرة.
- هذا فقط.

تصنعت الغباء وسألتها:

- ماذا تقصدين؟

نظرت نحوي بغضب، ولكزتني في كتفي قائلة بذات النبرة الغاضبة:

- لا شيء.

ثم أسرعت المسير مبتعدة عني وقد تملكها الغيظ، وسمعتها تغمغم في حنق:

- أحمق.

كنت سعيداً جداً بهذا، لأني تأكدت الآن أنها تميل إليّ أكثر مما كنت أظن.

أعتقد أنها بدأت تحبني.

ابتعدت سارة عن غابة الخيزران، وذهبت إلى حيث يجري النهر، وجلست على صخرة قريبة منه، تتأمل مياهه الجارية في شيء من الحزن. وشعرت بأني يجب أن أصالحها. وقفت بجوارها بينما كانت تقذف بحجر في النهر. قلت لها:

- تسمحين لي بالجلوس معك؟

لم تجبني. فجلست بجوارها وقلت:

- لماذا غضبتِ مني؟

أيضاً لا إجابة، فاستطردت بمرح:

- هل تحبينني؟
- مزاحك ثقيل.
- لكني لا أمزح.

قالت بصوت خافت:

- لا شأن لك بي.

ربتُّ على كتفيها قائلاً:

- أنا آسف .. أعلم الجواب الذي أردتِ أن تسمعيه مني.

نظرت إليّ لحظة، ثم أشاحت بوجهها في حياء وقالت:

- ماذا تقصد؟ عن ماذا تتحدث؟

كنت على وشك أن أصارحها بالحقيقة، بأني أحبها، فقلت لها:

- سارة أنا....

ولم أكمل الكلمة، فقد سمعنا صوتاً غريباً لم نسمع مثله من قبل. كان يشبه – إلى حدٍ ما – صوت المزمار، لكنه لم يكن مزماراً، بل هو صوت كائن حي، حيوان ما يصدر هذا الصوت.

شعرت سارة بشيء من الرعب فقالت:

- ما هذا؟

قلت لها وقد انتابني القلق:

- دعينا نبتعد عن هنا.

وشرعت أجذب يدها كي نذهب، لكنها قالت:

- انتظر.
- ما الأمر؟
- يبدو أنه صوت حيوان في ورطة.
- سارة .. اسمعيني .. قد يكون الامر خطيراً .. دعينا نذهب.
- لا .. يجب ألا نتركه يعاني هكذا.
- لا شأن لنا.
- سوف نلقي نظرة فقط .. أرجوك.

تنهدت في استسلام:

- حسناً، ليكن .. لكن استعدي جيداً .. فنحن لا ندري ما هو هذا الشيء وما الذي يقدر على فعله.

وتسللنا في هدوء متتبعين الصوت، كان قادماً من خلف بعض الأشجار شاهقة الارتفاع. ثم بعد هذه الأشجار، كان هناك حاجز صخري، صعدناه فإذ خلفه فيل، فيل صغير أذناه صغيرتان كثيراً عن أذن الفيل العادي كان بني اللون، كثيف الشعر، لا يتعدى طوله ستين سنتي متر، ويبدو أنه قد سقط عن الحاجز، أو هكذا ظننا في البداية، لكنا رأينا وحشاً مفزعاً يتقدم منه، هذا الوحش هو الببر السيفي الذي كان قد هاجمنا قبل ذلك.

همست سارة في أذني في قلق مضطرد:

- ما العمل الآن؟

فهمست بدوري:

- دعينا نفر بأنفسنا قبل أن يشتم هذا المفترس رائحتنا.
- لكن إن تركنا هذا المسكين، فسيفترسه.
- هذا أفضل من أن يفترسنا نحن.
- لا .. لن أتركه.

ونظرَت حولها في محاولة لإيجاد حل لإنقاذ هذا الصغير من هذه الورطة الكبيرة. لكنها لم تهتد إلى شيء. ففكرت أنا بسرعة، وظننت أني وجدت الحل.

* * *

(١١) عادل وسيفي الأنياب

رأيت الببر يقف تماماً أســفل مجموعة من الصـــخور الأيلة للســقوط، فذهبت مسرعاً نحو هذه الصخور، ووقفت خلفها، وبكل ما أوتيت من قوة شرعت أدفع هذه الصخور، نحو الببر. فتدافعت تهوي نحوه بأقصى سرعة ممكنة.

ورآها الببر...

فشرع يركض محاولاً تفاديها...

وتفاداها بالفعل.

ثم نظر نحونا – أنا وســارة – وأظنه تذكرنا على الفور، لأنه كشــر عن أنيابه، وأصدر زئيره المهول، ثم شرع يصعد إلينا، فوق الحاجر، بأسرع ما يمكنه.

- يا إلهي الرحيم.
- اركضي يا سارة .. بسرعة.

وركضــنا، بأقصــى ســرعة لدينا، محاولين نزول هذا الحاجز. لكن الببر كان أسرع منّا بكثير، فلحق بنا، أو بالأحرى، لحق بي أنا.

وانقض عليّ. فســقطت أنا وهو فوق بعضــنا عن الحاجز الصــخري، وهوى جســدي على الأرض بمنتهى القوة. وكان آخر ما رأيته، هو ذلك الببر جاســم فوق صــدري، بنابيه الطويلين، لو أحنى هذا الكائن رأســه فقط، لانغرس هذان النابان في صدري، ولأردياني قتيلاً. وغبت عن الوعي.

الشيء الوحيد الذي كنت متأكداً منه، أنني لن أستيقظ بعد ذلك أبداً.

لكني استيقظت، ويا لها من مفاجأة!

فتحت عينيَّ ببطيء، لأجد كل ذرة من جسدي تؤلمني، تؤلمني بشدة.

تأوهت من الألم:

- آاااه .. أين أنا؟

هتفت سارة بسرور:

- عادل .. أنت بخير.

ثم إنها احتضنتني، فصرخت من الألم:

- آاااه.
- أوه .. أنا آسفة .. أنا حقاً آسفة.

قلت وأنا أجاهد كي أخفي ألمي:

- لا بأس.

ثم إنني أخذت ألهث فجأة، وبدأ صدري يعلو ويهبط بسرعة جنونية، وتفصد العرق من جبهتي، ورأيت الدنيا تدور من حولي كالإعصار. وآخر ما التقطته أذناي صياح سارة ودموعها تسيل:

- ليساعدني أحد.

وأظلمت الدنيا في عيني. واختفى كل شيء.

رأيت البدر في السماء، يرسل أشعته – أو بالأصح أشعة الشمس المنعكسة عليه – نحوي، وكان الجو بارداً، ورطباً، ورأيت السحب تسير في السماء، مواريةً القمر، لتظلم الأرض بي، ثم...

ثم فتحت عيني، عدت للواقع من جديد.

وكانت سارة واقفة على باب الخيمة، التي كنت أنا بداخلها، وسمعتني وأنا أتأوه، فدلفت للداخل قائلة:

- حمداً لله على سلامتك يا عادل.
- أين أنا .. وماذا حدث؟ ألم يأكلني الببر؟

ضحكت بصوت خفيض وقالت:

- لقد تم إنقاذك في اللحظة الأخيرة.

وكنت مستلقٍ على ظهري فحاولت النهوض جالساً، لكن ألماً رهيباً فاجأني، فأسرعت سارة تقول لي:

- إياك ان تتحرك .. أنت مصاب بكسور بالغة.
- كسور؟!

لم تجبني على الفور، وإنما ذهبت خارج هذه الخيمة، وعادت بعد لحظات تحمل بيدها نصف جوزة هند، بداخلها سائل لزج، وقالت:

- اشرب هذا .. سوف يجعلك تشعر بتحسن كبير.

وقربتها من فمي، فرفعت رأسي قليلاً مرتشفاً ما بهذه الجوزة من سائل. فجأة قلت باشمئزاز وأنا أبعد وجهي:

- يعععع .. هل هذا هو طعم حليب جوز الهند؟

قالت باستنكار:

- حليب جوز الهند؟! هذا ليس حليب جوز الهند. هذا السائل عبارة عن خليط من الأعشاب البرية تستخدم لتسكن الألم. ونصف الجوزة هذه تُستخدم كوعاء ليس إلا.
- لكن ماذا حدث؟ كيف تم إنقاذي؟ وأين أنا الآن؟ و....

وضعت سارة سبابتها على فمي قائلة:

- ششششش .. لا تتحدث .. سوف يجعلك هذا الدواء تنم الآن .. وحين تستيقظ .. سأخبرك كل ما تريد معرفته.
- لكني لا أشعر بالنعاس.

قلتها في اللحظة التي تثاءبت فيها، فضحكت سارة، فاستطردت:

- حقاً أنا لا أشعر بالنـ....

وتثاقلت جفوني وتثاءبت من جديد، وكان هذا هو آخر ما شعرت به قبل أن أغرق في الظلام من جديد.

لا أدري كم استمر هذا الحال..

أستيقظ، فتناولني سارة هذا الدواء الغريب، فأنام.

لكني أتذكر آخر مرة استيقظت فيها.

* * *

(١٢) آكلي لحوم البشر

أفقت هذه المرة لأراني مشدود الوثاق من يديّ وقدميّ، حاولت أن أتحرك دون أدنى جدوى.

اهدأ يا عادل .. اهدأ كي تستطع أن تفكر.

هكذا كنت أقول لنفسي، وكنت أصبر نفسي بهذه الكلمات، وبالفعل رغم الوضع الذي كنت فيه، والذي لا أحسد عليه، فقد استطعت أن أهدأ – ولو قليلاً – ونظرت حولي، فإذ بي معلقة من يديَّ وقدميَّ إلى فرع ضخم، ورأيت بعض الأشخاص البدائيين مفتولي العضلات، يدلفون إلى داخل الخيمة.

كانوا غاضبين. غاضبين بشدة. وما يرتدونه كان لا يذكر، إزار من جلود الحيوانات يسترون به عورتهم فقط. نظراتهم إليَّ أفصحت على أني سأكون مدعواً على العشاء، لا كضيف، وإنما وليمة!

تقدم اثنان منهم، وأمسكوا بالفرع، أحدهما من الأمام، والآخر من الخلف، وخرجوا من الخيمة، يحملون الفرع وأنا مقيد عليه كخروف على وشك أن يشوى.

شعوري في هذه اللحظة لا يصدق، الرعب. الفزع. الهلع، كلها معانٍ مبسطة لما اجتاحني حينها من شعور. حاولت أن أخلص نفسي من هذه القيود، لكن جسدي لم يقو على ذلك.

ما أن خرجوا بي من الخيمة إلى العراء حتى رأيت ما زاد فزعي وهلعي، آلاف من هؤلاء البدائيين، آكلي لحوم البشر، هللوا جميعاً لرؤيتي معلق بهذا الشكل، وكل منهم كان يلعق شـــدقيه كأنما يتخيل كيف ســـيكون مذاقي في فمه. وبدأوا يتراقصون بنشوة وجنون. أمام نارٍ مشتعلة.

ووقفت من بينهم عجوز اســـتولت التجاعيد على كامل وجهها، وأخذت تتحدث بلغة غير مفهومة، وهم يهتفون بشكل منظم بعد كل فقرة تقولها. ثم إنها أشارت إلى خيمة أخرى، وصاحت مرة أخرى بمقولة لم أفهمها، ولم أطمئن لها، فخرج من هذه الخيمة رجلين آخرين يجران فتاة سوداء الشعر، ممشوقة القوام، ترتدي سروالاً من الجينز الأزرق، وفوقه قميص أبيض، أو كان فيما مضى أبيضاً.

عرفت الثياب، وعرفت صاحبتها، إنها سارة.

الدماء تسيل من فمها ومن مواضع متفرقة من جسدها، وكأنما كانوا يعاملونها بعنف ووحشية.

كانت تصـــرخ في رعب وهلع. وجدتني أصـــيح بمنتهى القوة – وبدون وعيٍ مني:

- سااااااراااة.

ثم إن جسدي بدأ ينتفض وكأن قوة جبارة سرت فيه، وبدأت عضلاتي تتحرك وفق إرادتي في محاولة عنيفة مني لقطع هذه الحبال التي تقيدني. لكن الحبال كانت أمتن مما تصورت، ومع ذلك لم أستسلم، وإنما ظللت أحاول، وأحاول بدون جدوى. واقتربوا بي من النار، وأخيراً استسلمت لقدري، وصرخت سارة فزعةً:

- عاااااادل.

نظرت إليها في يأس وأنا أقول:

- أنا آسف يا سارة.

واستعدوا لإلقائي في هذه النار

وحدث آخر شيء كنت أتصوره...

* * *

(١٢) خطة واما

بينما أنا في هذا الموقف الذي لا أحسد عليه، وقد استسلمت لقدري، وأيقنت أني ملقىً في النار لا محالة، إذ حدث شيء لم أتصور حدوثه على الإطلاق.

فقد صاحت العجوز بكلمة من كلماتها الغير مفهومة. فوضعوني على الأرض، وحلوا وثاقي، وحاولت النهوض لكن جسـدي رفض الاسـتجابة لعقلي، فظلت طريح الأرض، أنظر لسارة بكل ضعفٍ وهوان.

ثم قالت العجوز شيئاً ما.

فتقدم رجل مفتول العضلات بشكل مرعب، كأنه بطل العالم في كمال الأجسام. واقترب من سارة، ورأيتها تنظر إليه في هلع، وصرخت بفزع:

- ماذا تريد مني .. ابتعد عني .. عادل .. أنقذني يا عادل.

ضغط أسناني ببعضهما بقوة، وبرزت عروق رقبتي، شعرت بغضب عارم، وبقوة هائلة تجتاحني، نسيت الألم، ونسيت كل شيء في هذه اللحظة، ولم يشغل بالي في هذه اللحظة الهائلة إلا سارة، وكيف أنقذها من هذا الوحش.

فصحت بأعلى صوتي:

- ساااااااااارااااااة.

فتوقف هؤلاء البربريون عن الضـــجة والصـــراخ، وران على المكان صـــمتٌ مطبق. ونظر إليَّ هذا الضـخم ذا العضـلات المفتولة. فقلت له وأنا أنهض على قدميَّ:

- دعها أيها القذر.

أعلم أنه لم يفهم ما قلت، لكنه ربما استشعر معناه، لأني وجدته يصرخ بصوته صـرخة عالية مدوية، فرددت عليه بصـرخة أعلى منها، كانت صـرختي تشـبه زئير الأسد إلى حدٍ كبير.

اتسـعت أعين الجميع إزاء هذه الصـرخة الهائلة، العجوز، وأفراد القبيلة، وذاك الضخم، حتى سارة نفسها وجدتها ترمقني بنظرة ذاهلة.

ضـربها هذا الضخم على رأسها ضربةً قوية جداً، فسقطت على الأرض بعنف، ثم اقترب مني، وبقبضـته الفولاذية، هوى على وجهي بلكمة قوية، لكني تفاديت هذه اللكمة، ثم أســرعت وكوَّرت قبضــتي، وبعزم ما أوتيت كلت له لكمة قوية في فكه، فطار جسده للأمام بضعة أمتار. وحاول النهوض فلم يقدر على ذلك.

كان الجميع ذاهلين لقوة هذه اللكمة، وكنت أنا نفســي أكثرهم ذهولاً. والذي زاد من دهشتي أني وجدتهم يصيحون بنشوة وفرح، ويتراقصون بمنتهى الاستمتاع. لم آبه لذلك وإنما ذهبت نحو سارة المُسجَّاة على الأرض.

جثوت على ركبتي، وحملت رأسها بين ذراعيّ، وقلت ووأنا على وشك البكاء:

- سارة .. سارة .. ردي علي يا سارة.

فتحت عينيها بتثاقل شديد وقالت بصعوبة:

- عادل .. أنت بخير؟
- نعم يا سارة .. أنا بخير .. وأنت أيضاً ستكونين بخير.

وتسللت دمعة على خدي، فقالت:

- لماذا أرى كل هذا القلق في عينيك .. لماذا تبكي يا عادل؟
- ســـارة .. أنـا أحبك .. حباً يصـــل إلى درجـة الجنون .. أرجوكِ لا تتركيني.

فجأة وكأنه درب من الخيال، قالت بمنتهى السلاسة:

- أخيراً قلتها.

ثم إنها احتضنتني بقوة كأنها برأت تماماً مما ألمَّ بها.

احتضنتها بقوة، ثم نظرت في عينيها قائلاً والدموع تنهمر من عيني:

- أنتِ بخير؟

قالت بمرح:

- بالطبع أنا بخير.
- لكني رأيت هذا العملاق....
- كان هذا تمثيلاً.

سألتها بذهول:

- تمثيل؟!! أنا .. أنا لا أستوعب هذا .. أليسوا آكلي لحوم بشر؟

ضحكت وقالت:

- هؤلاء؟! بالطبع لا.
- رأسي بدأ يدور .. أنا لا أفهم أي شيء.

نهضت وأمسكتني من يدي قائلة:

- انهض معي .. أريد أن أعرفك بشخص.
- من؟

سألتها وأنا أنهض، فجذبتني من ذراعي بقوة، نحو السيدة العجوز – سالفة الذكر – وقالت:

- عادل .. أعرفك بـ (واما) .. زعيمة هذه القبيلة.

وضعت السيدة يدها على كتفي وحدثتني بكلام كثير لم أفهم منه حرفاً واحداً، لكني تكلفت الابتسام، مع انحناءة خفيفة برأسي.

وبدأ أبناء القبيلة يحيطون بي، وكل منهم يبتسم ويربت على كتفي، كأنهم يهنئوني بشيء ما. ثم بدأوا يغنون ويرقصون بمنتهى الاستمتاع. قالت سارة:

- هذا الاحتفال على شرفك أنت.
- أنا؟!
- تعال سأخبرك بكل شيء.

وأخذتني، وذهبنا لصخرة بعيدة بعض الشيء عن احتفال هذه القبيلة، ثم بدأت حديثها قائلة:

- إن واما سيدة عظيمة حقاً.
- سارة .. إنني لا أفهم أي شيء.

ضحكت وقالت:

- حسناً .. سأخبرك بكل شيء.

وبدأت تقص عليَّ ما حدث...

* * *

(١٤) تفسير

قالت سارة:

- حين سقطت من فوق الحاجز الصخري، وجثم الببر السيفي على صدرك، توقعت – أنا – أنك هالك لا محالة، فصرخت صرخة عالية، وصدف أن كان بعض أبناء القبيلة يبحثون عن حيوان صغير قد شرد من قطيعهم، فما أن سمعوا صرختي حتى أسرعوا نحوي لنجدتي، فرأوك والببر يكاد يفتك بك، فألقوا رماحهم بسرعة نحوه، لكنه تفاداها جميعاً ببراعة منقطعة النظير، عدا رمحاً واحداً أصابه في عينه اليسرى ففتقها، فزأر من الألم، وكاد ينقض عليهم لولا أن رأى أن عددهم كبير ويحملون حراباً مدببة، فآثر السلامة وفر هارباً.

فسألتها:

- وماذا حدث بعد ذلك؟
- اقترب أحد هؤلاء البدائيين منك .. وهتف لرفاقه ببعض الكلمات غير المفهومة .. فأتى أضخمهم – الذي تقاتلت معه منذ قليل – وحملك على ظهره، فقلت لهم وأنا خائفة من منظرهم: "دعوه يذهب أرجوكم." .. فنظر أحدهم إليَّ، وابتسم وأشار لي بيده أن أذهب معهم .. فذهبت وبي شيء من القلق والخوف على نفسي .. وعليك .. وظللنا نسير حتى أظلم علينا الليل، ووصلنا أخيراً .. كانت بيوتهم عبارة عن خيام .. هي تلك التي تراها هناك .. وما أن وصلنا حتى دلفوا بك إلى خيمة، وأشار أحدهم إليَّ بالدخول، فدخلت فإذ بهم قد

أسـجوك على سـجادة من صـنعهم هي عبارة عن جلد حيوان معين، ووقفت أمام رأسك سيدة عجوز تكشف على جراحك.

- واما .. أليس كذلك؟

أومأت برأسها أن نعم، واستطردت:

- وأمرَتهم بخلع ثيابك....

ما ان قالت سـارة ذلك حتى نظرت إلى جسـدي مسـرعاً، وجدت جسـدي عارٍ تماماً إلا من قطعة من الجلد – مثل التي يرتدونها – ملفوفة حول خصـــري، لا تستر إلا عورتي.

كيف لم ألحظ ذلك؟!

وشعرت بخجل شديد، فضحكت سارة وقالت:

- لا بأس.

فسألتها وأنا لا أزال أشعر بالخجل:

- هل كنت واقفة حين كانوا.... ؟

وأمسكت عن الكلام، لكنها فهمت ما كنت أرمي إليه فقالت:

- كنت مضطرة لذلك .. كي أتأكد أنهم لن يؤذوك.

احمر وجهي من الخجل، فقالت سارة:

- قلت لك لا بأس .. لم يحدث شـيء .. وعلى كل حال أشـحت بنظري حين كانوا يجردونك من....

وصمتت، ففهمت، وتهللت أساريري، وهتفت:

- حقاً؟
- أجل بالتأكيد.

لكن إن كان ما تقوله صحيح، فلماذا أشعر إنها تكذب عليْ.

تابعت سرد القصة قائلة:

- المهم .. بعد أن جردوك من ثيابك، ووضعوا على خصرك هذه القطعة الجلدية، فحصت واما جسدك بطريقة عجيبة، ثم بعد أن انتهت هزت رأسها في أسف متمتمة ببعض الكلمات بلغتهم. وعلى الرغم من أني لم أفهم كلمة واحدة مما قالت، لكني شعرت بقلق شديد عليك. فخرجت من الخيمة، ودار بينها وبين بعضهم حديثاً غير مفهوم، وبعد أن انتهوا من الكلام، ذهب بعضهم بعيداً عن القبيلة، حتى ابتلعهم الظلام، ونظرت إليَّ مبتسمة في ود، وقالت بعض الكلمات غير المفهومة بالنسبة لي، لكني أظن أنها كانت تطمئنني عليك. ثم أدخلتني خيمتك وتركتني وانصرفت.
وما أن أشرقت شمس اليوم التالي حتى خرجت على صوت حديث لهم أمام الخيمة، فوجدت الذين ذهبوا بالأمس قد عادوا، ومعهم بعض الأعشاب، أخذتها منهم واما ووضعت كل نوع منها بين صخرتين وفركت كل هذه الأعشاب تماماً، حتى سارت مساحيق، ثم أمرت فجيء لها بنصف ثمرة جوز هند – يستخدمونها كوعاء – ووضعت بها بعض هذه المساحيق بنسب معينة، ثم جيء لها بسائل أبيض وضعته على هذه الأعشاب، وأخذت تقلبه جيداً حتى امتزجت المكونات كلها ببعضها، فأعطتني هذا الوعاء بما فيه من خليط، وقالت لي شيئاً، فارتسمت على وجهي أمارات أنني لا أفهم، فأدركت

ذلك، فأشـــارت إليك، ثم أشـــارت إلى فمها، ففهمت أنها تقول أن أطعمك هذا الخليط بعد أن تستيقظ.
وامتثلت لأمرها، فبعد عدة ساعات استيقظت أنت وأخذت تتأوه من الألم، فأعطيتك هذا الخليط العجيب فسكن ألمك ونمت على الفور.
ومن يومها وأنا أرعاك وأعطيك هذا الخليط حتى وأنت نائم، وهم كانوا يطعمونني بعض الأكلات العجيبة – اللذيذة جداً – ويســقونني لبناً طازجاً .. وكانت واما تطمئن عليك مرة واحدة يومياً .. إلى أن دخلت عليك بالأمس .. وطرقت على قدمك بضع طرقات بعصاها .. ثم طرقت على صـــدرك بيدها طرقة خفيفة .. ثم أمرت أحدهم أن يقلبك على ظهرك .. وطرقت بضـــع طرقات بســبابتها على فقراتك القطنية .. وهزت رأسها ذات اليمين والشمال في أسى واضح .. ثم رفعت عصـاها وطرقت بعض الطرقات القوية على ذات الفقرات .. ثم نظرت نحوي .. بعينين حزينتين .. فشـــعرت بالقلق أكثر عليك .. ثم خرجَت من الخيمة ونادت بعض أبناء القبيلة وأخذت تحدثهم .. وأشارت نحوي في سياق الحديث .. وبعد أن انتهت .. نظرت إليّ .. وأشـارت نحو شـخص منهم ونحوك .. ثم نظرت لهذا الذي أشـارت إليه .. فصـعد على بعض الصـخور المنخفضـة .. ثم أشـارت نحو شخص آخر فصعد إلى هذه الصخور يحمل في كل يد من يديه عصا صـغيرة .. ويضـع كل عصـا منهما في جانب من فمه .. ففهمت أنه يقوم بدور الببر السيفي .. والأول يقوم بدورك .. ثم هوى الشـخص الأول على الأرض .. وفوقه هذا الذي يمثل الببر الســيفي .. ثم أتت مجموعـة منهم ومثلوا أنهم يلقون رمـاحهم نحو الببر، ففر الرجـل (الذي يمثل دور الببر).

فقلت لها:

- هذا عجيب .. كأنهم يعيدون تمثيل ما حدث.
- بالضبط.

- لكن لماذا؟

فقالت:

- بعد أن فر الرجل الذي يقوم بدور البير .. حمل الرجل الضخم الرجل الذي يقوم بدورك – تماماً كما حملك – ثم وضعوه في خيمة .. ومثلت واما مراحل العلاج كلها حتى تلك اللحظة .. ثم فتح الرجل – الذي يقوم بدورك – عينيه .. ومثل أنه يحاول النهوض فلا يستطيع .. ويحاول من جديد دون أي جدوى.
- وما معنى ذلك؟

صمتت قليلاً ثم قالت:

- معناه أنك ستفقد القدرة على الحركة للأبد.
- يا إلهي .. هل ظنت أنني سأصاب بالشلل؟!
- لقد صدق حدثها يا عادل.

فحركت أصابع يدي وقدمي، ثم قلت:

- لكني أحرك أطرافي بسهولة كما ترين.
- لأنها رتبت تمثيلية أخرى .. فرتبت أن تقوم لتجد نفسك في مقيداً بالأغلال إلى جذع شجرة .. وتظن أنك وقعت في يد آكلي لحوم بشر حقيقيين .. وإن لم تستطع تحريك أطرافك حينها وإحلال نفسك من القيود .. فأظهر أنا والدماء تتناثر من مواطن متفرقة من جسدي .. عسى أن تشعر بالخوف عليَّ وتحاول أن تنقذني .. فإن لم تستطع بعد كل هذا أن تتحرك، فيحلوا وثاقك، ويظهر هذا الضخم، ويمثل أنه يحاول أن...

أمسكت عن الكلام، فسألتها في حدة:

- أن ماذا يا سارة؟
- لم يكن ليقدم على فعل شـــيء .. كان يمثل كي تلتهب نار الغيرة فيك، فهم يظنون أني زوجتك، وحينها تنهض متناسـياً ألمك، ومتغلباً عليه. فإن لم يفلح ذلك، فلن يفلح أي شـــيء آخر في جعلك تقف على قدميك من جديد .. ولقد نجحت الخطة، وكان نجاحها عظيماً.

قلت في ذهول:

- معقول هذا؟
- ماذا تعني؟
- أقصد هؤلاء القوم البدائيون .. معقول أنهم يمتلكون هذا الذكاء؟
- ولمَ لا؟ لا تحقرن أحداً عسى أن يكون خير منك.
- أنا لا أحتقرهم يا ســـارة .. لكن حياتهم البســـيطة هذه لا توحي بأنهم يمتلكون هذه القدرات العلاجية والتمثيلية المذهلة.

ابتسمت سارة وقالت:

- يوضع سره في أبسط خلقه.
- أصبت يا سارة .. يوضع سره في أبسط خلقه.

* * *

(١٥) وادي البط..!

استيقظت في صباح اليوم التالي مفعماً بالنشاط والحيوية، وقدمت سارة إلى خيمتي – حيث كانت قد رفضت المبيت فيها بالأمس ما دمت بخير.

- صباح الخير يا عادل.

أجبتها وأنا أتمطى:

- صباح الخير يا سارة.
- هل نمت جيداً بالأمس؟
- نمت كأني قتيل.

وبينما نحن نتحدث، دلف إلى الخيمة فتى صغير، لا يتجاوز العاشرة من عمره، وكان أبيض اللون أشقر الشعر، جميل المُحيا، ذو ابتسامة رائعة، لكنه لم يخل من عيب كبير، أو كما نقول في مصر "الحلو ما يِكْمَلش".

عيبه أنه كان عارٍ تماماً من أي ثياب!

وكان يحمل بين يديه وعاءين مصنوعين من ثمار جوز الهند، وتفاجأت لرؤيته يدلف على خيمتنا بهذا الشكل، في حين ابتسمت له سارة، ومسحت على رأسه في دِعة وحنان.

وضع هذا الصبي الوعاءين أمامنا، وحيانا بإماءة من رأسه وانصرف، ونظرت لسارة بعينين متسائلتين دون التفوه بحرف واحد فقالت:

- هذا هو طعام الفطور.
- ليس هذا ما أود السؤال عنه.
- عمَ تسأل إذاً؟
- ما هذا الصبي ال... المجرد من الثياب؟
- آه .. إنه واشو .. الصبي المكلف بإحضار الطعام لنا كل يوم.
- لمَ هو عارٍ تماماً؟ رأيت أن كل واحد من الرجال هنا يلفون مئزراً – كهذا الذي أرتديه – مصنوع من جلد الحيوانات حول خصره، والنساء يلفون قطعة من ذات جلد ليوارين ما فوق الصدر، إلى ما دون الركبة بقليل.
- هذا بالنسبة للرجال والنساء، أما الأطفال هنا فلا يرتدون أي شيء.

فقلت لها:

- جذب انتباهي أيضاً أنه أبيض البشرة بينما كل رجال ونساء القبيلة – كما رأيت – من ذوي البشرة السمراء.
- الأطفال هنا مدللون، محجوبون عن الشمس، حتى إذا بلغوا السن التي يصبحون فيها كباراً، ستروا عورتهم، وخرجوا يقومون بأعمال الكبار الشاقة، فتلفح الشمس أجسادهم، ويتحور لونهم الأصلي إلى الأسود.
- هكذا إذاً.

فقالت سارة:

- هيا .. لا تهدر المزيد من الوقت، يجب أن نأكل.

نظرت في الطبقين فإذ بهما سائل هلامي أخضر متماسك القوام، قلت بشيء من الاشمئزاز:

- ما هذا الشيء؟
- أعلم أن شكله مقرف بعض الشيء .. لكن طعمه جيد جداً.

قلت في نفور وأنا أبعد هذا الطبق عني:

- أنا لن آكل هذا الشيء المقزز.
- جربه أولاً قبل أن تحكم عليه .. كما أنك لن تحصـــل على طعام آخر غيره هذا اليوم.
- لكن يا سارة....
- هيا .. على الأقل جربه فقط.

ووضعت يدها في طبقها، وأخذت حفنة من الطعام براحتها وتناولتها قائلة:

- أقسم أنه لذيذ.

استسلمت أخيراً، وقررت أن أجرب هذا الشيء، وعلى مضض، وضعت يدي في طبقي وأخذت حفنة من هذا الشيء، ترددت قليلاً لكن وضعتها في فمي مرة واحدة.

توقعت طعمها البشع قبل أن تصل إلى لساني، لكني تفاجأت بأن مذاقها رائع.

- إنها لذيذة حقاً.

ابتسمت سارة قائلة:

- لقد قلت لك.

ثم بعد أن أنهينا طعامنا، خرجت ســـارة تحمل الطبقين الفارغين، فما أن رآها واشو حتى هرع إليها وأخذ منها الطبقين، وعاد بعد قليل يحمل وعاءين آخرين بهما سائل أبيض مألوف الشكل.

- هل هذا... ؟
- نعم .. إنه حليب .. حليب طازج.

وتناولت وعائي، وارتشفت منه رشفة كبيرة، ثم أزحته عن فمي، وقد رسم الحليب فوق فمي شارباً أبيضاً وهمياً فضحكت سارة وهي تنظر إليْ.

قلت بسعادة:

- يا سلام .. هذا الحليب لذيذ جداً .. أهو حليب أبقار؟

ورحت أرتشف منه رشفة أخرى فقالت سارة:

- لا .. ليس حليب أبقار.
- جاموس؟
- لا.
- إبل .. غنم؟
- أيضاً الجواب هو لا .. ولو مكثت أبد الدهر تخمن ما وصلت إلى الجواب الصحيح.

سألتها بترقب:

- سارة .. ما هو مصدر هذا الحليب؟

صمتت قليلاً .. ثم دنت برأسها مني وقالت:

- ماموث.

قلت باستنكار:

- ماموث؟!! دعك من المزاح يا سارة، وأخبريني بالله عليك الحقيقة.

ضحكت قائلة:

- علمت أنك لن تصدق.
- مزاحك صار سخيفاً.
- أقسم لك يا عادل أن هذه هي الحقيقة.

قلت بسخرية:

- آه .. صحيح .. وما تناولناه في الفطور هو مخ ديناصور!

ابتسمت سارة دون أن تجادلني، وبعد أن أنهينا ما بالوعاءين من حليب، قالت سارة:

- سأذهب لأحضر لك ثيابك .. إنها لدى واما.

وخرجت سارة لبعض الوقت، ثم عادت خاوية اليدين، فسألتها:

- أين ثيابي؟
- إنها عند واما.
- ولمَ لم تحضيرها؟
- حين أشرت إلى واما أن تحضر لي الثياب .. أخذت تحدثني بكلمات من لغتهم الغريبة لم أفهم منها حرفاً واحداً .. وفي النهاية رفضت أن تعطيني الثياب.
- لكني أشعر بالإحراج الشديد من بقائي بهذا الإزار .. أنا شبه عارٍ تقريباً.
- لا داعي لشعورك بالإحراج، كل رجال القبيلة يلفون إزاراً مثل الذي ترتديه تماماً.
- أنا لست أشعر بالإحراج منهم .. أنا أشعر بالإحراج منكِ أنتِ يا سارة.

ضحكت سارة وقالت:

- لا .. لا بأس.

ثم إنها أمسكتني سارة من معصمي وقالت:

- تعال معي.
- إلى أين؟
- سآخذك في جولة داخل القبيلة.

وما أن خرجنا من الخيمة، حتى رأيت النساء يحملن الكثير من الحشائش الخضراء على رؤوسهن ويسرن نحو الجنوب.

- إلى أين يذهبن؟

سألْت سارة فأجابتني:

- لإطعام الطيور.
- وأي نوع من الطيور يربُّون؟

لم تجبني مباشرة، وإنما قالت:

- تعال .. سأريك.

وسرنا خلفهم حتى وصلنا إلى ربوةٍ عالية.

بدأن جميعاً يلقين منها ما يحملن من حشائش، فهوت الحشائش في وادٍ مغلق من الجانبين، نحو الطيور اللائي يربينها ألا وهي...

- بط؟!! يربون البط؟!

ضحكت سارة وقالت:

- هل توقعت ذلك؟

فقلت:

- إنهم مثلنا تماماً .. يربون ما نربي في بيوتنا.
- أتظن ذلك حقاً؟
- بلا شك .. إنهم يربون البط .. وكذلك أمهاتنا تفعل.

شرعَت سارة في النزول عن تلك الربوة نحو الوادي قائلة:

- تعال.
- إلى أين؟

لم تجبني، فقد كانت مشغولة بالنزول. وتبعتها، وكنت أسبق منها في الوصول إلى الأرض، أرض الوادي...

وادي البط ..!

لم تستغرق وقت طويل حتى كانت بجواري داخل هذا الوادي، أمسكتني من معصمي وسرنا حتى وصلنا إلى حيث بطة بيضاء جميلة الشكل.

هتفت مبهوراً:

- واااااو .. يا إلهي .. هل هذا معقول؟
- هل ما زلت تصر على أنهم يربون ما تربيه النساء في وطننا؟

هززت رأسي لليمين واليسار دون أن أتلفظ بحرف واحد، فقد كنت مأخوذاً بما رأيت. لقد كانت بطة بيضاء الريش، ذات منقار أصفر اللون، لكنها كانت

أضـــخم من أي بطـة رأيتهـا في حياتي، كانت ضـــخمة بحجم الجمل، أو ربما أضخم.

رأتنـا البطـة، فظلـت تنظر إلينـا – بعينيهـا الـدائريتين – نظرةً بلهـاء، ثم أدنـت رأسها منا، فشعرت بالقلق يطرق باب قلبي، فتحت هذه البطة فمها، فظننت أنها ســتحاول التهامنا، لكنها لم تفعل، بل فتحت فمها ليصـــدر عنها هذا الصـــوت المضحك:

"واك واك".

لم تكن مخيفة على الإطلاق، بل كانت وديعة مسالمة، فظللت أضحك وأركض في المكان مبهوراً كطفل صغير أخذه والده إلى حديقة الحيوان للمرة الأولى.

ســـرعان مـا رأيت بطـة ثـانيـة، وثـالثـة، ورابعـة، ورأيت بطة تســـير وخلفها صـيصـانها الصـغيرة ذات اللون الذهبي، والملمس الزغبي الناعم، وكان حجم الصوص الواحد يقارب حجم الخروف الضخم.

أخذت أضـحك بنشـوة واسـتمتاع، وأخذت أقفز في الهواء كأني فقدت عقلي من فرط الســـعادة، وبينما أنا أقفز وأدور، إذ زلت قدمي فارتطمت بشـــيء خلفي أبيض الريش.

كانت بطة، ظنت أني ألعب معها، فركضت خلفي، وهي تصدر صوتها المميز: "واك واك".

فركضت أمامها وأنا أصيح:

- النجدة .. ساعدوني .. لا أريد أن تكون نهاية على يد بطة!

كنت خـائفاً بحق، لكن نبرتي كـانت – على الرغم مني – مضـــحكة، لذا كانت سارة تضحك باستمتاع شديد بالورطة التي أقحمت نفسي بها. فقلت لها:

- هل هذا وقت الضحك؟ البطة تكاد تقتلني.

ضحكت من جديد قائلة:

- شكلك مضحك وأنت تقول هذا.

فقلت لها:

- هل هذا هو الوقت المناسب في رأيك؟

وما زالت تضحك.

فجأة أمسكتني البطة بمنقارها من الإزار الذي ألف به خصري..

- هاي .. اتركي هذا الشيء من فمك .. قد تكشفين المستور.

وسارة تضحك.

ورفعتني البطة لأعلى في الهواء. فتمسكْت بإزاري بقوة حتى لا يُفَك. وأنشأت أقول:

- هذا لا يجوز يا مدام.

وسارة تضحك.

أخذت البطة تهز رأسها لليمين واليسار بسرعة، ومازال الإزار – وأنا بداخله – في فمها، فكنت أهتز أنا أيضاً في الهواء بقوة، حتى إذا ما انتهت من هز رأسها، شعرْت – أنا – بالغثيان، فوضعت يدي على فمي، وشعرت لحظتها أني أكاد أسقط من الإزار، فلففت يدي حول خصري ممسكاً بالإزار بكل قوة من جديد. قلت وكأني أحدث الإزار:

- أرجوك تماسك قليلاً يا صديقي.

وسارة لا تزال تضحك.

ثم نظرت لسارة وأنا معلق – في فم البطة – في الهواء، وهتفت:

- توقفي عن الضحك عليَّ، وأديري وجهك في الاتجاه الآخر.
- لماذا؟
- أشعر أن الإزار لن يتحمل.

فضحكت سارة ضحكاً شديداً حتى دمعت عيناها. ويبدو أن البطة قد اكتفت بهذا العقاب، فتركت الإزار من منقارها، فسقطت – من أعلى – وأنا أصرخ:

- آاااااه.

وهويت على وجهي.

وحين تركتنا البطة ومشت، رفعت رأسي قائلاً لها في سخرية:

- شكراً على الرحلة.

وأقبلت سارة نحوي وهي تضحك، ومدت يدها لي كي تساعدني على النهوض، فقلت لها:

- ابتعدي عني .. لا أريد مساعدة منك .. أقول لكِ أنقذيني يا سارة .. أنقذيني يا سارة .. فتتركيني معلقاً بين السماء والأرض هكذا!

قالت وهي لا تزال تضحك:

- أنا آسفة حقاً .. لم أكن أستطيع أن أتوقف عن الضحك .. لم أكن أعلم بأنك خفيف الظل هكذا.

وأمسكت بيدها وأنا أنهض متأوهاً من الألم:

- آاااه يا ظهري.

ثم نظرت إليها قائلاً:

- أنتِ سعيدة الآن؟

ضحكت وقالت:

- تعال.
- إلى أين؟
- سنخرج من هنا .. أريد أن أريك شيئاً.

قلت بلهجة مضحكة:

- شيء آخر؟! لا .. أنا لا أريد رؤية أي شيء اليوم .. سأظل هنا.
- حسناً .. هناك ذكر بط قادم نحوك.
- ها، ها .. محاولة جيدة.
- لا .. حقاً .. انظر خلفك.

فنظرت وأنا غير مصـــدق لما تقول، لكني تفاجأت بذكر بط يركض نحوي مسرعاً، ففزعت إلى الصخور متسلقاً إياها في سرعة. وضحكت سارة، وهي تتبعني نحو الأعلى.

لم يكن الخروج من الوادي أمراً عسيراً، فقد وجدنا بعض الصخور المتراصة على هيئة قريبة من هيئة الدَرَج.

(١٦) القطيع

خرجنا من وادي البط، وجذبتني سارة من معصمي خلفها، وأنا أسألها:

- إلى أين؟
- صبراً يا عادل.

وخلال دقائق كنا واقفين أمام جبل هائل، فقلت لها:

- إياكِ أن تطلبي مني أن أصعد هذا الجبل.

ضحكت وقالت:

- لا تقلق .. ليس هناك داع للمزيد من الصعود.
- إذاً لماذا أتينا إلى هنا؟
- قلت لك اصبر.

وعلى صخرة قريبة، جلست سارة تنتظر بشغف قدوم شيء ما، ثم دعتني للجلوس بجوارها، فجلست وأنا لا أفهم ماذا ننتظر، وبعد عدة دقائق شعرت بالملل، فقلت لها:

- هل لي أن أفهم ما ....

بترَت عبارتي قائلة:

- شششش .. إنه قادم.
- من؟
- القطيع.

تساءلت:

- القطيع؟! أي قطيع.

لم أكد أتم السؤال، حتى سمعت صوتاً أفزعني. كان صوت أقدام ثقيلة تدب. الأرض تهتز. يزداد صوت الأقدام اقتراباً. تهتز الأرض أكثر...

وأكثر...

ومن خلف الجبل، ظهر أول حيوان في هذا القطيع. اتسعت عيناي ذهولاً. ما هذا؟ قلت وعلى وجهي امارات الدهشة:

- هل هذا .. ماموث؟!

كان أحد أفراد القبيلة يمتطي ظهره، وتبع هذا المخلوق واحد آخر، وظلوا يتقدمون من خلف الجبل تباعاً، وفوق كل ماموث فرد من أفراد القبيلة، فقلت لسارة وأنا أرى هذا المشهد بأم عيني:

- يا إلهي .. إذاً أنت لم تكوني تسخرين حين أخبرتني أن ما شربناه هو حليب الماموث؟

ابتسمت سارة وقالت لي:

- هل تتذكر هذا الفيل الصغير الذي كان الببر سيفي الأنياب على وشك افتراسه؟ لم يكن فيلاً .. بل كان واحداً من هذه المخلوقات العملاقة .. ها هو هناك.

ونظرت حيث أشارت فرأيت الماموث الصغير يقفز ويلهو حول الأقدام الخلفية لأمه.

- لكن الأفيال .. أعني .. الحليب...
- أفهم ما تعني يا عادل .. تريد القول أن البشر لا يشربون حليب الأفيال.
- تماماً.
- لكن هناك نقطتان هامتان عليك أن تأخذهما بعين الاعتبار .. أولاً: هؤلاء الأشخاص لديهم عادات مختلفة تماماً عن العادات المتبعة في عالمنا .. ثانيا: أن هذا ليس فيل .. هذا ماموث!

وفجأة توقف القطيع، ورفع كل ماموث خرطومه ولفه حول خصر الشخص الذي يمتطيه. غاص قلبي بين قدميّ لأنني توقعت شيئاً سيئاً على وشك الحدوث. لكن توقعي لم يكن صحيحاً هذه المرة، فقد كان الماموث يُنزل راكبه على الأرض بهذه الطريقة.

سمعت صوت هذا المخلوق، ولم يكن مثل صوت الفيل، بل كان مثل نفير البوق إلى حدٍ كبير. ولا تصدقوا أحداً يقول لكم غير ذلك، حتى ولو ادعى أنه عالم، فإن تمسك برأيه فاسألوه: هل سمعت صوت الماموث من قبل؟

- هل تود امتطاء ظهر ماموث؟

فاجأتني سارة بهذا السؤال بينما كنت أتأمل هذه المخلوقات البديعة، فقلت لها:

- عفواً؟ ماذا قلتي؟
- هل تود امتطاء ظهر ماموث؟

ضحكت وقلت لها:

- أنت مجنونة.

أمسكتني من معصمي وقالت:

- تعال.

وجذبتني نحو شـخص يقف أمام ماموث، ولم تتكلم وإنما أشـارت إليه أنها تود ركوب الماموث، فابتسـم بود وأفسـح لها المجال، فتقدمت وهي تجذبني معها ووقفنا أمام هذا الكائن الرائع، ولم يتوقف قلبي عن الخفقان بسرعة مطردة.

وقفت سارة أمام القدم اليمنى الأمامية للماموث وطرقت عليها ثلاث مرات، فمد الماموث خرطومه حول خصـرها، ورفعها فوق ظهره. فهتفت لي سـارة من فوق الماموث:

- اطرق بقبضـتك فوق سـاق الماموث الأمامية اليمنى، كما رأيتني أفعل.

فاقتربت من الماموث المجاور، وأنا أرتجف من الخوف، ثم طرقت ثلاث طرقات خفيفة، فلم يتحرك الماموث، فهتفت سارة:

- بقوة أكبر .. هيا لا تخف.

وبعد لحظة من التردد، استجمعت شجاعتي، وطرقت بقوة فوق ساق الماموث، فمد خرطومه ولفه حول خصـري، في حين أغمضـت عينيّ خوفاً من أن يسحقني. فرفعني فوق ظهره وأنا لا أزال مغمضاً عيني بقوة، وسمعت سارة تقول:

- افتح عينيك أيها الشجاع.

ولما فتحت عيني، ورأيت أني فوق ظهر ماموث اتسعت عيناي من الدهشة، وفي ذات اللحظة ارتسمت ابتسامة واسعة على وجهي، وصحت بمنتهى السذاجة:

- أنا أمتطي ماموث .. أنا أمتطي ماموث.

قالت سارة وهي تضحك علي:

- اهدأ قليلاً .. ودعك من هذه البلاهة.

ثم استطردت وهي تمسح على جانب أذن الماموث الخاص بها:

- امسح على جانب أذن الماموث اليمنى.
- لماذا؟

قلتها وأنا أفعل ما طلبته مني، فتحرك الماموث فجأة للأمام، فهبت الموقف قليلاً، لكني سرعان ما استعدت توازني، وسار الماموث الذي أمتطيه، بجوار الذي تمتطيه سارة.

وسألتها:

- ماذا كان ليحدث لو أنني مسحت على جانب الأذن الأخرى للماموث؟

ضحكت وقالت:

- صدقني .. لا تريد أن تعرف.

فشعرت ببعض القلق، لكني غيرت مجرى الحديث قائلاً:

- إذا عدنا لديارنا .. هل سـيصـدقنا أحد إن أخبرناهم أننا امتطينا ظهر ماموث؟

* * *

(١٧) رحيل عن القبيلة

بعد عدة أيام، تركنا القبيلة، وودعَنا أهلوها باحتفال عظيم، حيث رقصنا وشربنا حليب الماموث. وأكثر شخص ترك بنا انطباع مذهلاً من أبناء القبيلة هي واما، السيدة الحكيمة، التي تتزعم هؤلاء القوم.

وسرنا أنا وسارة نهتدي بأول شعاع للشمس من اليوم التالي للاحتفال. قبل رحيلنا مباشرة أحضرت واما لي مفاجأة، إنها ثيابي. وكنت قد بدأت أعتاد الإزار الصغير حول خصري.

طوال الطريق كنت انا وسارة نتجاذب أطراف الحديث، وكانت هي أول من بدأ بالكلام قائلةً:

- لن أنسى هؤلاء القوم الرائعون أبداً ما حييت.

فقلت لها:

- لقد غيروا نظرتي عن القبائل البدائية مائة وثمانون درجة.
- أظن أنه بعد كل ما رأيناه .. من غير الجائز أن نقول عليهم أنهم بدائيون .. لقد تعلمت منهم كثيراً من الأشياء لم أتعلمها في المدارس .. حقاً إنهم أشخاص أذكياء....
- خاصة واما .. تلك العجوز الرائعة.

وبعد فترة من المسير والحديث غير المُجدي سألتها:

- ما أكثر ما تعلمتيه يا سارة من معاشرتك لهذه القبيلة؟

فكرت قليلاً ثم قالت:

- أكثر شـــيء تعلمته هو أن الحياة البســيطة هي أجمل حياة .. وأنت يا عادل .. ما أهم ما تعلمته من معاشرتك لهم؟
- لقد تعلمت أن العلم والحكمة هما أســـاس الســـيادة والزعامة .. لقد صـــارت واما – العجوز واهيـة البنـاء – زعيمـة على هؤلاء القوم الأشداء مفتولي العضلات بحكمتها وعلمها ورجاحة عقلها.
- أصبت يا عادل .. بالمناسبة .. إلى أين نحن ذاهبون؟
- لا أعرف يا ســـارة .. أظننا ســـنحاول البحث عن وســـيلة نعود بها لديارنا.
- ولكن...

أمسكَت عن الكلام فجأة، فقلت لها:

- ولكن ماذا؟ ما الأمر؟
- لا شيء.

وبعد فترة من الصمت قالت:

- عادل .. هل أنت متأكد من أنك تريد العودة إلى المنزل.
- هذه كانت رغبتك أنت يا سارة.

خفضت رأسها وقالت في خفوت:

- نعم .. صحيح.

ثم نظرت إليَّ مستطردة:

- لكن إن كنت تريد البقاء.....

وصمتت فقلت لها:

- بصـــراحة لا أعرف .. لقد بدأت أحب الجزيرة، وأتعلق بها .. لكني في ذات الوقت اشـــتقت لأمي وأبي .. وأريد رؤيتهما والاطمئنان عليهما.

قالت بخفوت:

- حسناً .. سوف نرحل .. لكن علينا أن نصنع وسيلة للخروج من هنا .. فأنا لا أظن أن هناك أي صلة لهذه الجزيرة بالعالم الخارجي.
- ما الذي دفعكِ على قول هذا الكلام؟
- انظر حولك .. ماموث .. وببر سيفي الأنياب .. حيوانات يظن الجميع أنها منقرضة .. ولو كان أحد من البشر – أياً كانت جنسيته – يأتي لهذه الجزيرة لأخبر العالم أجمع أن هذه الحيوانات لم تنقرض بعد بشكل نهائي.
- ما رأيكِ أن نعود لفكرة صنع قارب من أشجار الخيزران؟
- لا أدري يا عادل .. لا أظن أنها فكرة سديدة.
- ولمَ لا؟
- لأكثر من سبب .. أولاً .. لا أظن أن بمقدورنا صنع هذا القارب .. فصنعه ليس سهلاً كما تعلم .. حتى لو استطعنا صنعه، فمن أدراك أنه سيوصلنا إلى بر الأمان ؟.. أعني .. لا نعلم كم تبعد المسافة بين هذه الجزيرة وبين أقرب جزيرة أو شاطئ له علاقة ببقية العالم.

قلت لها:

- ربما تكون على مسافة قريبة.

فقالت:

- وربما لا.
- ظننت انكِ أكثر تفاؤلاً مني يا سارة.
- ربما .. ولكن التفاؤل لن ينفعنا إذا ما غرق مركبنا في قاع المحيط .. نحن هكذا نضحّي بأرواحنا.

فسألتها:

- والعمل؟
- لا أدري .. ربما علينا أن نرضى بوجودنا هنا و....

وقبل أن تكمل، قلت لها بشيء من الجدِّية:

- اقتراح مرفوض.

ثم قلت لها مستنكراً رغبتها:

- لا أدري كيف غيرت رأيك فجأة .. وأحببت البقاء بهذا الشـــكل .. أنا أنـام وأســـتيقظ أحلم بـاليوم الـذي أعود فيـه لوطني .. لأمي وأبي .. لأصدقائي .. ولحياتي العادية.
- أعلم مدى اشـتياقك لوالديك .. وأصـدقائك .. لكني أقول إن لم نسـتطع صنع القارب فيمكننا أن....

ثارت ثائرتي وأنا أقاطعها بحدة:

- اسمعيني أيتها الفتاة المخبولة...

اتسعت عيناها وقالت في ذهول:

- مخبولة؟ أنا؟!

فأردفت كأني لم أسمعها:

- أنا لست عبداً لديك تمتلكينه .. وتسيرينه كما تريدين...
- أنا يا عادل؟!
- تـارة تكونين بخير .. وتـارة يجن جنونـك .. تـارة تريـدين الـذهـاب .. وتـارة تؤثرين البقـاء .. كل هذا بلا ســـبب واحد مقنع .. لكن تعلمين أمراً .. أظنني أنني أعلم السبب وراء ذلك .. وهو أنك مخبولة.

تملك الغيظ منها وقالت:

- معك حق .. أنا مخبولة لأنني غيرت رأيي بلا سبب.

ومضت عني بضع خطوات، ثم التفتت إليَّ وأردفت:

- ولعلمك .. أنا لست مخبولة .. بل أنت هو الأحمق .. لأن لديَّ سبب مقنع جداً لرغبتي في البقاء .. لكنه لم يعد مهماً الآن.

وتركتني وانصرفت...

* * *

(١٨) خصام

لا أدري ما الذي أغضـــبها. فما دار بيننا كان مجرد نقاش وإن كان حاداً بعض الشـــيء. لكن شـــيئاً بداخلي ألحَّ عليَّ أن أصـــالحها، فذهبت إليها وكانت تســـند ظهرها إلى إحدى الأشجار. ورأتني أقف أمامها فلم تعلق بكلمة، فسألتها:

- ما الذي أغضبكِ مني؟

كانت إجابتها الوحيدة أن أشاحت بنظرها عني، فأردفت:

- رغم أني لا أعلم سبب غضبك، إلا أنني آسف.

قالت في لا مبالاة صريحة:

- أنا لا أهتم بك ولا بأسفك السخيف.
- إذاً ماذا عليّ أن أفعل كي أزيح عنك هذا الوجه الكئيب؟

أجابتني وهي تنهض وتبتعد عني:

- ليس عليك أن تفعل أي شيء.

أنا حقاً لم أرها غاضبة بهذا الشكل من قبل، لكن طريقتها الجافة هذه جعلتني انا أيضاً أغضب منها، وأتجنب الحديث معها، ففي النهاية أنا لا أراني مخطئاً.

بعد ساعة تقريباً، عادت وقالت لي بجفاء:

- هيا بنا نصنع قارباً .. لا أريد البقاء في هذه الجزيرة مع شخص مثلك أكثر من هذا.

نزلت كلماتها على أذناي كالصـواعق، فقررت أن أرد لها الصـاع صـاعين، فقلت:

- وأنا أيضاً لا أطيق الوجود معك أكثر من ذلك .. أنت فتاة مغرورة.

ما أن سـمعت هذا الكلام، حتى اتسـعت عيناها للحظة، كأنها لم تتوقع هذه الإجابة، ثم ضغطت أسنانها ببعضها من فرط الغيظ، وسارت مبتعدة عني وهي تغمغم بكلمات لم أفهمها.

ولعدة أيام، عملنا على قطع أخشاب الخيزران، وربطها مع بعضها عن طريق الحبال الطبيعية الخضراء التي تتدلى من الأشجار.

كنا نفعل ذلك في صمت، وكثيراً ما كانت أمارات الغضب ترتسم على وجيهينا نحن الإثنين.

وأخيراً، وبعد عمل تسعة أيام متواصلة انتهينا من صنع سطح القارب، لكن لم نعرف كيف نصنع له شراع، ربما لو تحدثنا معاً في هذه المسألة لعلمنا كيفية صنع واحد. لكن هذا لم يحدث.

ولأيام أخر، ظللنا نبحث عما يصلح ليكون شراعاً دون جدوى.

ما العمل الآن؟

ماذا لو لم نجد ما يصلح ليكون شراعاً؟

إلى متى سيدوم هذا الخصام؟

هل سنمكث هنا طوال ما تبقى من حياتنا؟

كان بالي مشغول دائماً في البحث عن إجابات لهذه الأسئلة، لكن بلا جدوى.

أخيراً قررت أن أتنازل أنا وأبدأ الحديث معها، وكان ذلك لحظة غروب شمس أحد الأيام. فذهبت إليها وكانت منهمكة في التفكير في شيء ما، وما ان رأتني حتى أشاحت بنظرها عني بجفاء. ورغم ان ذلك أثار شيئاً مزعجاً في نفسي، إلا

أن رغبتي في إنهاء هذا الخصـــام الغير مبرر طغت على الانزعاج الذي كنت أشعر به. فاقتربت منها، وسألتها بنبرة حادة:

- هل لي أن أعرف لمَ أنت غاضبة مني؟
- اغرب عن وجهي .. لا أريد رؤيتك.
- لن أذهب حتى أعلم ما الذي غيرك هكذا؟

نظرت إليَّ وقالت بازدراء:

- لكنك متلبد الإحساس .. لن تفهم حتى ولو أخبرتك.

كدت أن أهوي براحة يدي على وجهها من فرط انفعالي، لكني لا أعرف كيف أحجمت عن ذلك، وقلت لها:

- إن أردنا الخروج من هذه الجزيرة .. فعلينا أن نفكر ســـوياً في كيفية عمل شراع لهذا القارب.
- موافقة .. ومسـتعدة أن أفعل أي شـيء .. فقط للتخلص من صـحبتك هذه.

وسرنا معاً، نتجول في أنحاء الجزيرة، بحثاً عما يصلح شراعاً لقاربنا الصغير.

توقفْت فجأة وقلت:

- لحظة واحدة.

فسألتني بجفاء:

- ما الأمر؟
- كيف لم ألحظ هذا من البداية.
- تلحظ ماذا؟
- هيا .. علينا ان نعود إلى القبيلة حالاً.
- نعود؟! ولكن لماذا؟
- قطعة الجلد التي يلفونها حول خصرهم لستر عوراتهم.

قالت:

- لا أفهم.

فبدأت أشــرح لها أن تلك الجلود – رغم أني لا عرف لأي كائن هي – تصــلح لأن تكون شراعاً إذا حصلنا على ما يكفي منها وربطناها ببعضها.

- ولكن كيف نخبرهم أننا نريد الحصـــول على كمية كبيرة من هذه الجلود؟

فأجبتها قائلاً:

- لست أدري بعد .. لكننا سنتوصل لحل ونحن في طريقنا إلى هناك.

وعدنا إلى القبيلة.

* * *

(١٩) واما الغاضبة

إلى القبيلة نعود .. أهلها يقابلونا بالترحاب .. نطلب منهم بعض ثيابهم .. يعطوننا إياها .. نودعهم ونذهب في سلام.

هذه كانت الصورة التي توقعت حدوثها، لكن يبدو أنني كنت مفرطاً في التفاؤل.

كان أول من رآنا من أبناء القبيلة هو الصغير واشو، الذي ركض نحو سارة مهللاً وفرحاً. هو يحبني، لكن بالطبع ليس كما يحب سارة.

مسحت سارة على رأسه في حنان، وأخذها من يدها متجها بها إلى خيمة واما، وتبعتهما بدوري.

رأتنا واما فذهلت، ونهضت واقفة تنطق ببعض الكلمات الغير مفهومة، لكني توقعت أنها تسألنا لماذا عدنا؟ فأشرت نحو الثياب التي ترتديها، وفرجت ما بين يداي عن آخرهما، في محاولة لإفهامها أننا نريد الكثير من هذه الثياب.

وإما أن الثياب مقدسة لديهم، أو أنها فهمتني خطأ، لأنها – بعد أن فعلت ذلك – نظرت إليَّ بغضب لم أعهده منها، وأشارت بعصاها نحو الخارج وهي تصيح، ولم يحتج الأمر منا أن نفهم لغتهم لنعلم أنها تطردنا بمنتهى الصراحة والوضوح.

قالت سارة:

- ما الذي فعلناه لنستحق الطرد؟
- لا أدري .. لكن علينا إطاعة الأمر .. فلا أظن أنها مستعدة للتفاهم معنا.

قالت سارة بغضب:

- لا .. لن أذهب قبل أن أحصل على هذه الجلود .. إنها سبيلنا الوحيد للخروج من هنا.

قلت لها وقد انتابني بعض القلق:

- إياك أن تتهوري يا سارة .. إنهم قادرون على دفننا أحياء إن هم أرادوا ذلك.

اتجهت نحو واما وهي ترميني بنظرة ذات معنى وتغمغم:

- جبان.

ثم نظرت إلى واما نظرة استجداء واستعطاف، وأخذت تشير بيدها نحو الثياب، وتحاول إفهام واما أننا نحتاجها للعودة إلى وطننا.

لكني كنت أنظر إلى واما، فأرى أنها على وشك أن تنفجر من الغيظ، ثم فجأة صاحت بكل ما أوتيت من قوة، فدلف إلى الخيمة مجموعة من رجال القبيلة الضخام شديدي البأس، فأشارت نحونا واما قائلة للرجال كلمة لن أنساها ما حييت:

- كولونوبابا.

وأنا واثق بنسبة مائة بالمائة أن هذه الكلمة معناها "أمسكوهم" أو "اقتلوهم"، لأن النظرة التي علت وجوه الرجال بعد سماع هذه الكلمة كانت شرسة بصورة لا يتحملها بشر. ثم أن أحدهم أمسك سارة ولجمها تماماً، فصحت فيه وأنا أنقض عليه:

- ابتعد عنها يا بن ال...

ولم أستطع الوصول إليه، أو حتى إكمال سبَّتي، فقد أمسكني بقية الرجال، وأحكموا مسكي حتى نجحوا في جعلي لا أستطيع أن أحرك ساكناً.

ثم أخذونا – وسط صراخ سارة ومحاولاتي المستميتة والفاشلة في الإفلات من قبضتهم – وخرجوا من الخيمة، وأحضر بعضهم الحبال، وأحكموا وثاقنا بقوة.

- ماذا تفعلون؟
- إلى أين تأخذوننا؟

واتجهوا بنا نحو جبل شاهق العلو، ثم شرعوا يصعدون بنا الجبل.

لم يكن عدد الرجال الذين يصـــعدون بنا الجبل يقل عن ثلاثين رجلاً من ذوي البأس. ولو كانوا ثلاثة رجال فقط لتمكنوا منا.

- يا إلهي.

قالتها سارة وفي عينيها نظرات تنم عن ذعر حقيقي، فسألتها:

- ما الأمر؟
- خلف هذا الجبل تقع صـخور حادة مدببة .. رأيتها حين كنت مريضـاً .. وأخشى أن يكون مصيرنا هو السقوط فوقها.
- يا للهول .. هل وجب عليكِ قول ذلك؟

حاولت أن أفكر في حل لهذه الورطة، وعمل عقلي بمنتهى السرعة، فهديت إلى حل ظننت أنه سينقذنا، فقد رأيت صخرة ضخمة توشك أن تسقط في أي لحظة، لكن يمنعها من ذلك مجموعة من الصخور الأصغر. فهدأت، وصعدت معهم في استسلام تام، إلى أن وصلنا إلى هذه الصـخور الصـغيرة، وكدت أركلها بقدمي فتهوي الصـخرة الضـخمة على رؤوس القوم، لكن تذكرت في اللحظة الأخيرة أنها سـتسـحقنا نحن أيضـاً. فعزفت عن ذلك. ورحت أفكر من جديد وأبحث عن حل ولكن دون جدوى.

وأخيراً وصلنا جميعاً إلى القمة.

وعلمت أن سارة كانت محقة في مخاوفها، فقد اعتزموا على إلقائنا من فوق قمة الجبل، نحو الصخور المدببة.

فصاحت سارة:

- يا إلهي الرحيم .. أنقذنا.

وأمسكوا بنا على حافة القمة، واستعدوا لإلقائنا وهم يضحكون ويتضاحكون.

ونظرت إلى بعد المسافة، وإلى الصخور في الأسفل، وقلت في ارتياع:

- نحن هالكون لا محالة.

ثم فجأة .....

* * *

(٢٠) وحش الجبل

كنا – أنا وسارة – قد استسلمنا لحتفنا، ونطقت الشهادتين في سري، ولم يكن لدي أدنى شك في أن أجسادنا خلال دقيقتين على الأكثر ستكون ممزقة فوق تلك الصخور الحادة. وتفيض أرواحنا إلى بارئها.

وانتابت سارة نوبة صراخ هيستيري، فظلت تصرخ، وتصرخ، وتصرخ حتى أني تمنيت لو أنها تصمت فقد كان رأسي على وشك الانفجار.

ويبدو أن صراخ سارة لم يزعجني وحدي، فقد برز من شق بين الصخور فوق قمة الجبل، مخلوق ضخم، طوله حوالي ثلاثون قدماً، وكان ذو جلد أصفر مرقط، لم أر مثله من قبل.

فقلت مشدوهاً:

- يا إلهي .. ما هذا الكائن المرعب؟

كان يقف على قدميه الخلفيتين، ولديه كفان ضخمان، وتنتهى أطراف يديه وقدميه بمخالب طويلة كالخناجر، وكان يملك فماً ضخماً ذو أنياب حادة، وعينان حمراوان، كأنهما جمرتان مشتعلتان. وكانت وقفته مستقيمة (كالبشر) ليس بها أي انحناء (كوقفة القردة).

لا أعرف رأي العلم، لكني أظن أن هذا هو الجد الأكبر للغوريلا (على الرغم من أن الغوريلا ليست مستقيمة الظهر، وليس لها جلد أصفر).

وما أن رأته سارة حتى زاد فزعها، وبالتالي صراخها. ويبدوا أن صراخها قد أزعج هذا الكائن كثيراً.

لأنه صاح بصوت مرتفع أشبه بالزئير، صوت يدل على غضب عارم.

ويبدو أن أبناء القبيلة كانوا يعلمون الكثير عن هذا المخلوق، إذ فجأة ارتســمت أمارات الذعر فوق وجوههم، لهذا صعدوا بأعداد كبيرة.

وأنشـأوا يسـتعدون للقتال بأن أشـهروا رماحهم، لكن الخوف والهلع منعوهم من مجرد محاولة إلقاء الرماح نحوه.

أقترب الوحش منا جميعاً، واستعد للهجوم، فألقى رجال القبيلة أسلحتهم أرضاً، وفروا كالجرذان المذعورة، وتركونا وحدنا فوق الجبل.

وتوقعت السناريو القاتل:

«الوحش سيقترب منا .. ونحن مقيدون بلا أدنى أمل للنجاة .. سيُعمل مخالبه في أجسامنا حتى نصير كالخِرَق البالية .. سيبدأ في التهام لحومنا – وأظنه سيحب مذاق سـارة أكثر من مذاقي! – وحين ينتهي .. سـيلقي بهياكلنا العظمية عن قمة الجبل.»

ولكن .. هل كنت محقاً هذه المرة؟

* * *

(٢١) إنقاذ غير متوقع

حين زأر الوحش، سـرت موجة من الرعب في أجسـاد أبناء القبيلة، فألقوا رماحهم، وشـرع كل واحد منهم يفر بنفسـه، تاركين إيانا فوق الجبل نواجه مصيرنا...

هل سيأكلنا الوحش؟

هل سيشفق علينا؟

هل سيمزق أجسادنا ويتركها تتعفن؟

وأخذت الأفكار البشعة تراودني بشراسة.

لكن الوحش لم يلتفت إلينا مطلقاً، وإنما جذب نظره الرجال الذين يهلعون ويركضون في كل اتجاه، لذا انطلق خلفهم فور أن بدأوا ينزلون الجبل.

أظن أن الوحش نظر إلينا وفكر: إن هذين لا يمكنهما الهروب، لذا سـأتركهما حتى أنتهي من هؤلاء البدائيون القذرون.

ولما كانت يدي مشدودة الوثاق إلى صدري، فقد استطعت – بعد صعوبة بالغة – أن أصـل إلى عقدة الحبل بفمي، وبعد محاولات أدمت أسناني، اسـتطعت أخيراً أن أتحرر من القيود.

وما كادت تمر ثوان قليلة من تحرري، حتى سمعنا أصوات صاخبة متداخلة، كانت عبارة عن صوت زئير الوحش متداخلاً مع صرخات رجال القبيلة الذين يستغيثون ويتألمون بشدة.

كان الصوت صعباً جداً على مسامعنا، فأسرعت أحل وثاق سارة، وبدأت تلك الأصـــوات – المؤلمة للســـامعين – تنخفض تدريجياً، وما كدت أنتهي من تحريرها، حتى هدأت الأصوات تماماً.

فخرجت الكلمات من فم سارة متقطعة وهي تسأل في رعب:

- هل .. هل انـ .. هل انتهى منهم؟

جذبت يدها بسرعة، ورحنا نختبئ خلف إحدى الصخور، ورأينا الوحش يصعد إلى القمة من جديد، وكم كان منظره بشعاً بحق!

رأينا الدماء تقطر من أنيابه ومخالبه، ثم عاد بخطوات متثاقلة إلى المكان الذي خرج منه بادئ الأمر.

أما نحن، فقد اضـــطررنا للمكوث في مكاننا بعض الوقت حتى نتأكد من أن الوحش قد نام تماماً، ثم خرجنا متسللين، حتى وصلنا إلى البقعة التي صعدنا منها فوق قمة هذا الجبل، وشرعنا ننزل بهدوء شديد.

وفور بدأنا بالنزول، رأينا المنظر الذي لن تنساه أعيننا أبداً.

دماء، وأشـــلاء، وأعضـــاء متقطعة ومتناثرة هنا وهناك، ووجوه قد تجمدت الصرخات ونظرات الفزع عليها للأبد.

شعرت بالغثيان لرؤية هذا، وكدت أتقيأ بالفعل، أما سارة فشهقت وهي تضع يديها فوق فمها، وعيناها تذرفان الدمع بلا توقف.

شعرت بالإشفاق عليها، فرحت أربت على كتفها، فصاحت بي وهي لا تزال تبكي:

- ابتعد عني .. نحن السبب في هذه المجزرة البشعة .. لن أسامح نفسي ولن أسامحك أبداً.
- شششش .. هدئي من روعك .. هكذا ستوقظين الوحش.

فتوقفت عن الكلام، لكن لم تتوقف عيناها عن البكاء.

وأمسكتها من كتفيها قائلاً:

- هيا بنا.

ونزلنا بضع خطوات، ثم توقفت فجأة، فسألتني:

- ما الأمر؟

فأجبتها:

- لقد راودتني فكرة رائعة .. فكرة أظن أنها ستحل لنا مشكلة الشراع هذه.
- حقاً .. ما هي؟
- ابقي هنا.

وعاودت الصعود لأعلى من جديد.

- إلى أين يا عادل؟
- لا تقلقي .. سأعود حالاً.

وبعد عدة دقائق عدت لها وأنا أحمل بين يدي ثلاثين قطعة من جلود الحيوانات التي يستعملها أبناء القبيلة كساتر لعوراتهم. بالإضافة إلى رمحين من رماحهم.

لم تظهر الفرحة على وجه سارة، وإنما على النقيض تماماً، فقد سألتني بغضب:

- من أين أحضرت هذه الجلود؟
- ليس هذا مهماً الآن.

صاحت باستنكار:

- هل خلعتها عن الأموات؟!!
- افهميني يا سارة ....
- أفهم ماذا؟ يجب علينا ستر الأموات، فإن لم نستطع، فلا نعري أجسادهم.

كانت تتغاضى عن الرماح لأنها تعلم أنها ستمكننا من الدفاع عن أنفسنا، لكنها كانت غاضبة جداً بسبب هذه الجلود.

صحت مبرراً:

- كان عليَّ فعل ذلك.

صمتت لتستمع لما أقول، فاستطردت:

- إن تركت هذه الثياب عليهم، فإنها لن تفيدهم في شـــيء .. لكنها قد تكون حلنا الوحيد للخروج من هذه الجزيرة.
- مؤكد هناك حلول أخرى أقل بشاعة من هذا؟

أسرعت قائلاً وقد نفد صبري:

- نعم هناك حل آخر .. وهو أن نصطاد بعض النمور أو الفهود ونسلخ جلدها لنستعمله كشراع .. فهل تستطيعين اصطياد هذه الحيوانات؟
- لا .. ولكن...

لم أعطها فرصة لتكمل عبارتها، فتابعت بحدة:

- وحتى إن نجحنا في اصطياد بعض هذه الوحوش .. فهل تستطيعين سلخ جلودها؟
- لا.
- وكذلك أنا لا أستطيع .. والآن من فضلك .. ساعديني على حمل هذه الأشياء.

فدنت مني وحملت بعضها عني، وقالت في فظاظة:

- ما يصـــبرني على تحمل أفعالك القذرة هذه هو رغبتي العارمة في العودة إلى الديار والابتعاد عنك.

فتنهدْت وأنا أتمتم:

- عادت ريمة لعادتها القديمة.

وتابعنا نزول الجبل...

* * *

(٢٢) مغامرة في المحيط

استغرق منا صنع شراع لمركبنا الصغير بضعة أيام أخرى، لكننا كنا نتعجل العمل حتى لا يستطيع أبناء القبيلة الوصول إلينا إن عثروا على إخوانهم الذين فتك بهم الوحش وسرقنا ثيابهم.

وبعد أن اكتمل قاربنا الصغير تماماً، لم يتبق إلا شيئين اثنين فقط، وهما أن نجمع المؤن (من ماء وطعام وسلاح)، وأن ننقل القارب إلى الشاطئ في أمان.

ولم يكن جمع الطعام أمراً عسيراً، فقد كانت أشجار الفاكهة في كل مكان حولنا، لكنا لم نعرف من هذه الثمار سوى التفاح والموز. لذا أكثرنا منهما قدر المستطاع

وعدنا إلى البحيرة عذبة الماء، وكان قد بقي معنا زوجين من الجلود، فغسلناهما جيداً جداً، وحولناهما إلى قربتين كبيرتين ملأناهما بالماء.

وقلت لسارة:

- اشربي من ماء البحيرة حتى ترتوي .. فسوف نحتاج ما بهذين القربتين من ماء لأطول فترة ممكنة.

ومن حسن حظنا أن الشاطئ كان قريباً من غابة الخيزران. فتمكنا من نقل القارب بسهولة، وعقدنا العزم على الرحيل في صباح اليوم التالي.

ومع أول شعاع للشمس، توكلنا على الله، وركبنا القارب وبدأت رحلتنا الكبرى للعودة إلى الديار....

مرت بضعة أيام كأنها الدهر بأكمله، وسارة تتجاهلني تماماً، لذا كان الملل هو رفيقي المقرب. لكنه لم يكن صديق مخلص، فقد تخلى عني بعد بضعة أيام. ففي

مساء اليوم الثالث سطع البرق في السماء يكاد يخطف الأبصار، وانطلق هزيم الرعد يضرب سطح المحيط حولنا بكل قسوة، وعصفت الرياح من الاتجاه المعاكس، فأسرعت أصيح بسارة:

- اخفضي الشراع بسرعة .. الرياح تدفع بنا للعودة للجزيرة بأسرع مما تتخيلين.

واستجابت للأمر، ثم إني رأيتها تكاد تتجمد من فرط البرد، وانتابت جسدها رجفة قوية، فشعرت بالإشفاق الشديد عليها، ونسيت تماماً – في هذه اللحظة – فظاظتها وغلظتها معي، واقتربت منها، وأمسكتها من كتفها، فهتفت بحدة وهي تدفع يدي:

- ابتعد عني.

صحت فيها بمنتهى الحدة:

- دعك من هذا التكبر الذي قد يتسبب في هلاكك .. لا أفهم السبب الذي جعلك تعامليني بهذه القسوة بعد أن صرنا أصدقاء مقربين .. لكن أياً كان هذا السبب .. فهذا ليس وقت تصفية الحسابات.

وضرب الرعد في بقعة قريبة من القارب، فصرخت سارة، وبحركة تلقائية، وجدتها بين أحضاني بفعل الخضة.

ثم لاحظت أنها بين أحضاني، فدفعتني عنها قائلةً:

- قلت لك أن تبتعد عني.
- أنا؟!! أنت من ارتمي بأحضاني.
- وغد.

أشرت إليها محذراً:

- الزمي الأدب يا فتاة .. صبري له حدود .. ويكاد أن...

بتر عبارتي ارتطام القارب بشـيء ما بعنف، لدرجة أن سـارة وقعت في الماء. فأسرعت ناحيتها وساعدتها على العودة إلى القارب.

- ما الذي حدث؟

سألَت، فأجبتها بنبرة توحي بالقلق بعد أن تبينت الموقف:

- لقد صدم مخلوق ضخم قاربنا.

قالت بصوت متهدج من فرط الخوف:

- هل.. هل.. هل هو قرش؟

أجبتها مفكراً:

- لا أستطيع أن أجزم بالضبط ما هو .. لكنه ليس قرشاً .. أنا واثق من ذلك.

وضـرب هذا المخلوق القارب من جديد، فسألتني سـارة وهي تمسك بالصـاري بقوة:

- إن لم يكن قرشاً .. فماذا يكون؟

مـا كادت تنطق هذا السـؤال حتى برز رأس هذا المخلوق بجوار القارب، وكم كان مرعباً بحق!

كان ذا رأس ضخم، وفكَّان قادران على الإطباق على إنسان بالغ بداخلهما. أما عن أسنانه فحدث ولا حرج، الأسنان على الجانبين كالتمساح، لكن طول السن الواحد يتعدى العشرة بوصات كاملة.[٣]

صرخت سارة في هلع، وغاص قلبي بين أقدامي وأنا أهمس بصوت متهدج:

- م.. ما.. ما هذا الم.. المخلوق ال.. البشع؟

ويبدو أن كلامي لم يرق لهذا الوحش، فقد غاص في الماء، ثم ظهر من جديد خلف القارب، وضع رأسه الثقيل فوق مؤخرة القارب، فارتفع القارب لأعلى، وكدنا ننزلق نحو فم الوحش – الذي فتح فكيه عن آخرهما – لولا أن سارة كانت متشبثة بالصاري، وتشبثت أنا بقدمها، لكني كدت أفلت لأنزلق في فم الوحش.

لكن الحظ السعيد كان بانتظاري، فقد انطلقت صاعقة رعدية لتضرب هذا المخلوق المرعب في ذيله جاعلة إياه يتأوه من الألم، ويترك القارب عائداً إلى الأعماق.

هتفت بسارة:

- يجب أن نبتعد عن هذا المكان بأسرع ما يمكننا .. فنحن لا نعلم من الذي يترصد بنا من هذه المخلوقات هذه المرة .. أشعر أننا هذه المرة لن نكون بخير...

وقد كنت محقاً في مخاوفي هذه المرة...

---

[٣] يتحدث الراوي هنا عن مخلوق بحري منقرض يدعى ليوبلرودن (Liopleuroden) وهو كائن يعتقد العلماء أن طوله قد يصل إلى أكثر من خمسين قدماً، ويكون رأسه حوالي ثلث حجمه، وهو يتميز بالسرعة، ويمكنه أن يقوم بهجمات مفاجئة كالتماسيح.

كان ذا رأس ضخم، وفكّان قادران على الإطباق على إنسان بالغ بداخلهما . أما عن أسنانه فحدث ولا حرج، الأسنان على الجانبين كالتمساح، لكن طول السن الواحد يتعدى العشرة بوصات كاملة .

(٢٣) سارة تضحي

حين كنا نصـــنع هذا القارب على الجزيرة، قصـــدنا أن يكون كبيراً وقوياً قدر المستطاع، وليس مجرد زورق صغير، ولعل هذا هو السبب في أنه لم يتحطم بنا حتى الآن. وللأمانة كنت فخوراً جداً بهذا القارب الذي أنشأته يدانا العاريتين.

«حقاً كم أن الإنسان يمكنه أن يصنع المستحيل إن اضطر إلى ذلك!»

جال هذا الخاطر في ذهني في اليوم الســابع لنا في المحيط. كانت العاصــفة قد هدأت في نهاية اليوم الثالث، وعادت من جديد في اليوم الخامس وهدأت قبل فجر اليوم السادس بساعات، ومن يومها لم تواجهنا أية عاصفة.

لكن كنا على موعد مع الهلاك جوعاً وعطشاً.

فصاحت سارة:

- عادل .. أنا أتضور جوعاً .. أشعر أن أحشائي تلتهم بعضها بعضاً.
- وأنا أيضاً أكاد أهلك من الجوع والظمأ.

سألتني باستنكار:

- الظمأ؟! هل تشعر حقاً بالظمأ؟!

سألتها بلهفة وقد لاح الأمل في عينيَّ:

- وهل هنا أي مصدر لماء يصلح للشرب؟
- يا أحمق .. لقد كان المطر غزيراً جداً في الأيام الماضـــية .. كيف لم تدرك ذلك؟!

يـا إلهي. إنهـا محقـة. لقد كـان أعذب ماء على وجه الأرض متاحاً لي بوفرة في الأيام الماضية، وأنا لم ألحظ ذلك!

غمغمت ساخراً من نفسي:

- هه .. يا لغبائي.
- اسمع يا عادل .. أنا لدي بعض الماء في قربتي.

هتفت بصوت مرتفع:

- ماذا؟! ألم تسقط منك لحظة كان وحش البحر على وشك التهامنا؟
- كنت أربطها حول خصري .. أنا لست مهملةً مثلك.

ثم إنها ناولتني قربتها، فشربت حتى ارتويت، وشعرت أني أعيد شحن طاقتي من جديد.

ابتسمت وقلت لسارة:

- لقد أنقذتِ حياتي مجدداً .. لن أنسى جميلك هذا ما حييت.

مرت بضـع سـاعات هادئة جداً، كان القارب يسير خلالها ببطيء شديد، وكنا وأنا وســارة لا نتحدث كثيراً. لكني شــعرت أن العلاقة بيني وبين ســارة بدأت تتحســن ولو قليلاً. فقررت أن أتحدث معها حول أســباب الخلاف، وأن أحاول استرضائها حتى ولو على حساب جزء من كرامتي. فقلت لها:

- سارة أريد أن أتحدث إليك في أمر هام.

نظر نحوي في شيء من اللامبالاة، فاستطردت:

- هل لي أن أعلم لم أنت غاضبة مني إلى هذا الحد؟

أشاحت بنظرها – وكأنها تذكرت شيئاً أزعجها – فأسرعت أقول:

- أرجوك يا سارة .. يجب أن أعلم ذلك الآن؟

ومرت بضع لحظات صموتة، ثم أخيراً سمعتها تقول في شرود:

- هل تتذكر تلك المناقشة الحادة بيننا؟
- التي أغضبتكِ مني؟ نعم أتذكرها بوضوح. لكني لا أتذكر إطلاقاً أنني قلت شيئاً أستحق عليه هذه المعاملة الجافة.

رفعت أحد حاجبيها وهي تنظر إليَّ باستغراب قائلة:

- حقا؟!
- على الأقل أخبريني.

عادت تنظر إلى المحيط الممتد أمامها وهي تقول:

- هل تتذكر لحظة قلت أنني مخبولة لأني أريد البقاء، وأن هذا هو السبب الوحيد لقراري هذا.
- قلت أنك مخبولة .. وقلتي أنني أحمق .. هكذا نصبح متعادلين.

ابتسمت ابتسامة ساخرة وقالت:

- لن تفهم أبداً.
- تعودين لسبِّي من جديد؟

قالت بهدوء:

- لا .. لن أفعل.
- إذاً أرجوكِ .. أتوسل إليكِ أن توضحي لي وجهة نظرك.

تنهدت قائلة:

- أنا لم أغضب لسبابك لي .. بل غضبت لأنك كنت أعمى.

أخذت أغمض عيني وأفتحها، وأنظر في كل شـــيء حولي وحينها قلت لها متهكماً:

- أعمى؟ أنا؟! لا أريد أن أخبرك أنك مخطئة لكن .. أنا لست أعمى ولا أعاني من ضعف في النظر حتى.

صاحت فجأة:

- أعمى القلب وليس البصر.

جلدتني بهذه العبارة. وذهبَت إلى ركن آخر بالقارب مبتعدة عني.

ووقفت مبهوتاً في مكاني. أظن أنني أخيراً بدأت أفهم ما ترمي إليه.

اقتربت منها – وأظنها كانت تبكي في صمت. فقالت دون أن تنظر إليَّ:

- ماذا تريد الآن؟

سألتها وأنا ولا أزال مبهوتاً:

- سارة .. هل تحبينني؟

فقالت وهي تمسح عينيها بيدها:

- لا .. بالطبع لا.

لكن نبرة صوتها كانت تقول غير ذلك. فصحت بها:

- بل تحبينني.

فصرخت وهي تجهش بالبكاء:

- بل كنت أحبك.

فشعرت بمفاجأة شديدة، بينما صمتت هي للحظة قبل أن تردف:

- لم أحبك فقط .. وإنما عشقتك عشقاً.

قلت لها بهدوء:

- هل هذا هو سبب تمسكك بالبقاء؟ لأنك تريدين البقاء معي؟

صمتت ولم تجب، فقلت:

- ولمَ لم تخبريني بهذا من قبل؟

وحين لم تجب جذبتها من ذراعها مجبراً إياها على النظر نحوي وصـــحت بحماس:

- أنا أيضـــاً أحببتك .. أحببتك منذ رأيتك للمرة الأولى .. أحببتك أكثر مما تتصورين .. ولم أعد أتصور حياتي بدون وجودك فيها.

سألت بلهفة وهي تحاول منع عينيها من البكاء:

- حقاً؟
- أنتِ لا تتصـــورين كم خفت عليك حين لم تبدي أي حركة بعد أن نجونا من الطائرة .. وحين كان الأسـد يلاحقنا أول مرة .. دفعت بك في المـاء كي يتبعني وحـدي .. وحين كنـا في القبيلـة .. خوفي على نفسي لم ينجح في جعل جسدي يستجيب لإرادتي وأتخلص من الشلل الـذي كـان يهـددني .. لكن خوفي عليك يـا حبيبتي جعلني أنجح في التخلص من هذا الشـلل .. ولا تتصـورين حين رأيت هذا الضـخم يضـربك على رأسـك يومها كيف كان شـعوري .. وحين علمت أنه كان مجرد تمثيل .. كاد قلبي يمزق صدري من فرط فرحه.

ثم جثوت على إحدى ركبتيَّ ممسكاً يدها قائلاً:

- هل تقبلين بي خادماً لجلالتك يا مولاتي.

كانت تضحك أخيراً، بعد بكاء مرير، وكنت أشعر أن قلبي يكاد يخترق صدري من فرط خفقانه. وارتمت في أحضاني وهي تذرف الدمع، لكن هذه المرة كانت دموع الفرح. ولم تدر سـارة حينها أن عيني أنا أيضـاً كانت تسـكب الدموع، الكثير من الدموع.

* * *

بعد بضعة أيام، سرت رجفة مباغتة في جسد سارة وقالت:

- أنا خائفة يا عادل.
- خائفة؟ مم تخافين يا عزيزتي؟
- لا أدري .. لكني أشعر بخوف شديد.

أمسكتها من وجهها، وقلت لها مطمأناً:

- إياكِ أن تخشي شيئاً وأنا معك .. مفهوم؟

هزت رأسها أن نعم، فضممتها إلى صدري وأنا أقول:

- لا تقلقي .. سأكون دائماً معك.

نظرت من فوق كتفي نحو شيء خلفي، واتسعت عيناها من الفزع وصاحت:

- احترس يا عادل.

قالتها وهي تدور مسرعة واضعة جسدها حائلاً بين جسدي وبين هذا الشيء الذي رأته، فاستقر سهم موجه في ظهرها، فصرَخت من الألم، وصحت أنا:

- سارة.

ورأيت سارة تبتسم وهي تغالب الألم قبل أن تغمض عيناها وتسكن حركتها تماماً.

وصحت:

- ساااراااااة.

وقبل أن أشعر، هوت ضربة عنيفة فوق رأسي، فأظلمت الدنيا كلها من حولي فوراً.

* * *

(٢٤) سيد البحر

بدأت أستعيد وعيي شيئاً فشيئاً، ووجدتني مقيداً بالأغلال بإتقان، يداي مرفوعتان لأعلى ومكبلتان بأغلال حديدية، وقدمي مربوطتان ببعضهما بحبل متين. وكانت يداي تؤلماني جداً.

- أين أنا؟

كان أول شيء نطقت به فور أن استيقظت، فأتاني صوت شخص يجلس على مقربة مني قائلاً:

- استيقظت أخيراً.

كان المتحدث هو رجل في أواخر الثلاثين من عمره كما يبدو، داكن البشرة، حليق الوجه، قوي البنية، رث الثياب.

وكان ممسكاً بنصل حاد، يحاول به فتح صندوق قديم. وسألته:

- من أنت؟ وما الذي يحدث هنا؟ وأين أنا؟ و....
- على رسلك قليلاً...

ثم إنه شعر بالذهول فجأة وسألني:

- أنت تتحدث العربية؟ أنت عربي؟!
- بالطبع أنا كذلك.

- لكن مظهرك أنت ومن كانت معك لا يوحي بذلك.

وهنا صحت بلهفة:

- سارة .. أين هي؟ ماذا حدث لها؟

ابتسم وقال:

- لا تقلق .. لا تقلق .. إنها بخير.
- بخير؟! تقول بخير؟! لكني رأيت سهماً ينغرس في ظهرها.
- لم يكن بسهم قاتل .. وإنما هو سهم صغير يستخدم للتخدير.
- إذاً فهي بخير؟
- نعم.

تنهدت في ارتياح، وحمدت الله على أن أنقذها، ثم آلمتني ذراعي أكثر، فسألت الرجل:

- من أنتم؟ ولماذا نحن – أنا وسارة – هنا؟
- صبراً .. ستعلم كل شيء في وقته.

ثم إنه خرج من الغرفة الخشبية الصغيرة، وعاد بعد لحظات، وخلفه رجل ذو مهابة عظيمة.

كان هذا الأخير رجلاً طويل القامة – أظن أن طوله ناهز المترين وبضعة سنتيمترات – شديد بياض الوجه، وكان له لحية خفيفة، وشعر رأس يسدل على كتفيه.

أما عن ردائه فقد كان رائعاً، يشبه زياً عسكرياً أسود اللون يلائم قائداً حربياً مخضرماً.

اقترب مني وسألني بصوت يتقعقع:

- إذاً أنت عربي؟
- نعم.
- ومن أي البلاد أنت؟
- من مصر؟

أطلَّت نظرات التساؤل من عينيه وهو يقول متعجباً:

- مصر؟! وأين توجد هذه البلدة؟ أنا لم أسمع بها من قبل.

اتسعت عيناي من الدهشة، وأنا أسأله:

- لم تسمع بمصر؟! مصر .. أم الدنيا .. بلد الحضارات .. ومهد الرسالات .. وأرض الكنوز والخيرات.

ضحك هذا القبطان ضحكة رنانة، ونظر إلى الرجل بجواره قائلاً بتهكم:

- أم الدنيا؟!

ثم التفت نحوي وقال:

- هذا هو طبع البشر .. كلهم يظن أن بلده أكبر وأهم بلد في الدنيا.

فقلت له:

- دعنا من هذا الآن .. هل يمكنك أن تخبرني أين أنا؟
- أنت على متن سفينتي .. سيدة المحيط.
- ولمَ أنا هنا؟
- تسبح في حدودي الخاصة.

- عفواً؟ لم أفهم هذه النقطة جيداً.

قال الشاب بجواره:

- ألا تعلم أن هذا الجزء من المحيط يمنع على غير رجال القبطان أبا رافع هشام بن الأمين؟
- أقسم أني لا أعلم عن ذلك شيئاً.

قال القبطان:

- هذا لا يبرر جريمتك.

قلت مستنكراً:

- جريمة؟! أجعلتموها جريمة؟
- وماذا تظن أنت؟ إنها جريمة كبيرة في حقي .. جريمة عقوبتها الموت .. حتى لا يتجرأ أحد على ذلك مجدداً.

قلت فجأة وقد هديت إلى فكرة جيدة:

- سيدي القبطان .. أظن أني أملك الحل لذلك.

قال ساخراً:

- وما هو يا حكيم عصرك وفلتت زمانك!
- تقول أن هذا الجزء من المحيط هو ملك لك ومحرم على غير رجالك التواجد به.
- هذا صحيح.
- إذاً لمَ لا أكون أحد رجالك المخلصين؟

ضحك الشاب ذو الأسمال البالية وقال:

- تظن أن أي شـخص يمكنه أن يكون أحد أفراد طاقم القبطان هشـام؟ الكل يتمنى هذا الشـرف .. لكن أفراد الطاقم يجب أن يكونوا فريدين من نوعهم .. جديرين بـ...

قاطعه القبطان:

- انتظر يا سلّام.

ثم ألقى نظرة متفحصة عليَّ وهو يتابع:

- يبدو أنه متميز عن غيره.

نظر إليَّ سلام باحتقار، ثم أشار نحوي وهو يحدث سيده قائلا:

- هذا؟! هذا متميز عن غيره؟!

برزانة ووقار قال القبطان:

- نعم .. متميز إلى حدٍ كبير.
- وماذا تظن أنها ميزته يا سيدي هشام؟
- رجاحة العقل .. وسرعة الخاطر.

عاد يشاور نحوي قائلاً بازدراء:

- هذا؟!
- بالطبع .. لأنه حين علم أنه ميت لا محالة لم يتوسل .. ولم يستعطف قلبي .. لكنه فكر في حل يجعله يخرج من هذه الورطة .. لذا طلب

مني أن يكون واحداً من رجالي .. لأنه يعلم أنهم الوحيدين الذين يسمح لهم بذلك.

ثم وجه حديثه إليَّ قائلاً:

- ألست محقاً فيما قلت؟
- لديك سرعة بديهة تُحسد عليها يا سيدي.
- أتعلم يا .... بالمناسبة .. ما هو اسمك؟
- اسمي عادل العربي يا سيدي.
- عادل؟ هذا اسم جميل .. أتعلم يا عادل .. أنا أومن أن من يتمسك بالحياة يستحق فرصة أخيرة للحصول عليها.

تهلل وجهي وأنا أقول:

- هل تعني.... ؟
- أجل يا فتى .. سوف أعطيك فرصة.
- ولكن سارة.

رفع أحد حاجبيه متسائلاً، فأردفت موضحاً:

- التي كانت معي على القارب .. ماذا فعتلم بها؟
- هي زوجتك .. أليس كذلك؟

علمت أن إجابتي يجب أن تكون في موضعها فقلت له:

- نعم زوجتي.
- لا تقلق عليها .. ستكون بخير حتى نعود إلى الديار.

ثم أسرع يستطرد في دهاء:

- هذا إن نجحت في الاختبار الذي سأضعك فيه.

كدت أسأله عن ماهية هذا الاختبار لولا أن أسرع أحد رجاله إليه قائلاً:

- سيدي .. سفينة ماجد تقترب منا.

هتف بغضب:

- ماجد من جديد .. لا أعلم ما الذي يريده هذا الفتى مني.

فتابع الرجل:

- إنه....

نظر إليه القبطان بحدة قائلاً:

- إنه ماذا؟ تكلم.
- إنه يرفع الرايات السوداء.
- الرايات السـوداء؟ رايات الحرب؟ يريد الحرب إذاً .. حسـناً ليكن له ما أراد.

ثم نظر إلى رجله الذي نبأه بالأخبار وقال:

- اجمع الطاقم فوق ظهر السفينة .. حالاً.

وما كاد يخرج الرجل حتى قال القبطان موجهاً حديثه إليَّ:

- أردت الفرصة لتكون أحد رجالي .. ها هي فرصتك أتتك الآن.

ثم قال وهو يصعد إلى ظهر السفينة:

- فك وثاقه يا سلّام.
- أمرك مطاع يا سيدي.

وما أن تحررت من قيودي، وصعدت على ظهر السفينة برفقة سلّام، حتى رأيت طاقم السفينة ينتصبون مشدودي الهامة، رؤوسهم لأعلى في شموخ ووقار، ينصتون بقلوبهم وجوارحهم قبل آذانهم، والقبطان يزرع الأرض جيئة وذهاباً، وهو يخطب فيهم قائلاً:

- أيها الرجال .. اسمعوا قولي .. أتاكم عدوٌ لا يرحم .. لا يبغي شيء سوى حصد الرؤوس .. رؤوسنا نحن .. من يظن نفسه؟ هل يرانا بمثل هذا الضعف؟ ألا يعلم من نحن؟ من نحن يا رجال؟

في صوت واحد مجلل، هتف الجميع:

- نحن أبناء الخطر
نحن أسياد المحيط

هذا ما يجب أن يعمه ماجد وأعوانه .. الآن هيا استعدوا .. إما أن نحصد رؤوسهم .. أو أن نحصد رؤوسهم.

هتفوا جميعاً:

- عاش القبطان هشام .. سيد البحر الهمام.

وصاح الرجل فوق برج المراقبة:

- إنهم على مرمى البصر أيها القبطان.

نظر القبطان إلى حيث السفينة المعادية، وصاح بكل قوة وحماس:

- أحضروا الأسلحة .. ارفعوا الرايات السود .. استعدوا أيها الأبطال.

ثم استطرد بنشوة وعينيه مثبتتان على السفينة التي تقترب بأقصى سرعة قائلاً:

- اليوم تطيح الرؤوس عن أجســادها .. اليوم يموت الشــيطان .. اليوم تطيح رأسك يا ماجد.

* * *

(٢٥) صراع الجبابرة

لم أكن أعلم ماذا عليَّ أن أفعل.

هل هشام هذا هو رمز الخير أم الشر؟

هل أقاتل إلى جانبه، أم أقاتله؟

ولم يسعفني عقلي بإجابة واضحة، إذ ارتطمت بنا بعنف سفينة لا تقل ضخامة عن سفينة القبطان هشام، ولم تكد تمر ثانية واحدة حتى كانت سفينتنا ملأي بعشرات المعتدين.

كان شكلهم مرعب حقاً، رجال أشداء، مفتولي العضلات، وجوههم تميل إلى السواد عنه إلى البياض. وكانوا يرتدون أسمالاً بالية، وعلى وجوههم ضحكات مجنونة.

وفي يد كل واحد من هؤلاء سيف بتار، لكن جند القائد هشام لم يكونوا أقل منهم قوة أو شجاعة، وأعطاني سلام سيفاً وقال:

- اثبت للقبطان أنك تستحق أن تكون أحد رجاله.

وقبل أن تسنح لي فرصة لإجابته، سمعت القبطان هشام يصيح:

- هجووووووووووووم.

قالها في اللحظة التي انقض فيها على الأعداء، كأسد وجد فريسته بعد أن كاد الجوع يفتك به.

وشرع هو ورجال طاقمه يضربون الأعناق، ورأيت الدماء والأشلاء تتناثر فوق كل شبر على سطح السفينة.

لم أر في حياتي كلها رجل يقاتل بشجاعة ومهارة كما يفعل هذا القبطان ورجاله، خاصة القبطان نفسه، فقد رأيته يطيح تقريباً بثلث رجال ماجد وحده بدون أية معاناة.

فجأة رأيت أحد الرجال يركض نحوي مشهراً سيفه لأعلى، يطلب رقبتي، فأسرعت وقذفت السيف الذي أحمله تجاهه، فاستقر بصدره، ووقع الرجل على الأرض صريعاً.

ورأى القبطان ما فعلت، فابتسم قائلاً:

- حركة ذكية.

ثم تابع حصد الرؤوس بكل نشوة واندفاع.

ولم تمض دقائق معدودة، حتى كان طاقم ماجد قد باد عن بكرة أبيه، ووقف القبطان هشام فوق سور السفينة، نحو سفينة ماجد، وصاح بأعلى صوته:

- ماجد .. لقد قتل رجالك الذين تفخر بهم .. اخرج وواجهني رجلاً لرجل.

لكن سفينة ماجد استدارت مولية الأدبار بما تبقى عليها من رجال، بالإضافة إلى ماجد شخصياً.

صاح سلّام:

- نتبعهم يا زعيم.
- لا .. دعوهم يفروا كالجرذان المذعورة...

والتفت إلى طاقمه مستطرداً:

- ولنحتفل بهذا النصر التاريخي.

فصاحوا جميعاً في قوة:

- هاااااااي

وشرعوا يدقون الطبول، ويغنون ويرقصون، ويشربون الخمر.

وأتاني شخص وأنا منزوي في جانب من السفينة وقال لي:

- انهض .. القبطان يريدك.

فذهبت إلى حيث يجلس الملك على عرشه بين رجاله وقلت له:

- أمرك يا سيدي.
- تقدم يا عادل .. واجلس هنا.

فامتثلت، بينما أردف:

- رأيتك في المعركة اليوم .. وكانت حركة ذكية منك أن تقذف الرجل بسيفك قبل أن يصل إليك.
- أشكرك على هذا الإطراء يا سيدي.
- لكنه كان الشيء الوحيد الذي فعلته في المعركة .. ما الأمر؟ هل هكذا تثبت ولاءك؟

فحاولت تبرير موقفي فقلت له:

- بصراحة يا سيدي أنا لا أجيد فنون الحرب.

نظر إليَّ ملياً، ثم طفق يضحك بصوت جهوري هو وجلساؤه، ثم استطرد بحدة:

- كذبت .. شـــخص بمثل ذكاءك كان يمكن لـه فعل الكثير في هذه المعركة إن اسـتخدم عقله .. أخبرني الحقيقة .. لا يمكنك الكذب عليَّ أبداً .. مهما حاولت.

قلت له:

- لن أستطيع أن أخبرك الحقيقة إلا إن أعطيتني الأمان.
- ليكن .. قل ولك الأمان.
- الحق أنني لا أعرف من تكونون .. أنتم أصحاب الحق أم رجال ماجد هم أصحابه؟ لهذا لم أك لألوث يدي بدماء الأبرياء أبداً.

وضع القبطان الكأس من يده فوق الطاولة أمامه بعنف، فتوقعت أن رقبتي على وشك أن تطير، ثم نظر إليَّ نظرة كادت تجعل قلبي يتوقف عن الخفقان، ثم قال بابتسامة واسعة:

- أحسنت القول حقاً يا عادل .. لقد كبرت في نظري كثيراً.

ثم صاح على خادمه:

- يا سلّام.

فأقبل سلام مسرعاً:

- أمر مولاي.

- أعلن في الجميع أن عادل صار واحداً من رجالي.
- أمرك يا مولاي.

وانصرف سلام، في اللحظة التي حدثني فيها القبطان قائلاً:

- اســـمع يا عادل .. أعلم أنك تتحايل عليَّ حتى تصـــل إلى بر الأمان فتحاول الفرار مني بزوجتك إلى موطنك.

اصطنعت الدهشة والاستنكار وأنا أقول:

- أنا أفعل ذلك؟! مستحيل.
- لا تتذاكى عليَّ يا فتى .. لقد رأيت أني لست بأقل منك ذكاءً وعقلاً.

والحق أن القبطان كان ذكاؤه كبيراً جداً .. حتى أنه أذكى مني شخصياً.

فقلت له بخضوع:

- أنا رهن إشارتك يا سيدي.
- اسمع يا بني .. ستكون أحد رجالي إلى أن نصل إلى صفصافة وهناك يمكنك أن تعود إلى بلدك..... ماذا كان اسمها؟
- مصر يا سيدي.
- أجل .. مصر.
- شكراً لك يا سيدي .. شكراً لك جزيل الشكر.

فقال وهو يشهر سبابته لأعلى:

- لكن إلى أن يـأتي هذا اليوم .. إيـاك أن تثير المتـاعب .. هيـا اذهـب واحتفل مع بقية الرجال.

واستدرت لأذهب، لكني التفت إليه من جديد، وقلت له:

- سيدي.
- ماذا تريد الآن؟
- سارة؟ هل يمكنني الاطمئنان عليها؟
- لا أعلم تقاليدكم في مصر هذه .. لكن هنا نعتبر اسم الزوجة عورة .. إن أردت ذكرها فقل: زوجتي .. ولا تذكر اسمها مرة أخرى .. مفهوم؟
- مفهوم يا سيدي .. ولكن.....
- حسناً .. إنها في قمرتي الخاصة .. هناك.

تهللت أساريري وأنا أقول:

- شكراً لك يا سيدي .. شكراً جزيلاً لك.

ورحت أركض بسرعة نحو القمرة التي أشار نحوها القبطان. وكانت عبارة عن حجرة في أسفل السفينة يتم الوصل إليها عن طريق دَرَج خشبي.

كنت على وشك النزول حين صاح بي أحد الرجال:

- هاي .. أنت يا رجل .. إلى أين تظن نفسك ذاهباً؟

أشرت إليه أن ينظر إلى القبطان، فأشار إليه القبطان بيده أن يدعني.

ونزلت هذا الدرَج، وقلبي يرقص في صدري فرحاً وطرباً. ووجدت باب القمرة مفتوح، وبعض الدماء تتناثر على الأرض أمام الباب.

أسرعت وفتحت الباب، وكانت الصدمة!

أسرعت أصعد الدرج، ثم انطلقت حيث يجلس القبطان يتضاحك مع بعض رجاله، ولما وصلت إليه، نظر إليَّ وأنا ألهث من التعب وقال بقلق:

- ما الأمر يا عادل؟
- سارة .. أقصد زوجتي.
- ماذا بها؟

* * *

(٢٦) اختطاف

«ماذا تقول يا فتى؟»

صاح بها القبطان وهو ينهض عن عرشه، فقلت له:

- لقد رأيت رجلاً ضخم الجثة مفتول العضلات، مسجى على الأرض جثة هامدة وقد طاحت رقبته بعيداً عن جسده.

صاح سلام:

- هل تعني أن زوران، حارس قمرة القبطان، قد قتل؟!

وانطلق ليتبين من ذلك بنفسه. بينما قال القبطان:

- بالطبع لا يمكن لزوجتك مهما كانت قوية أن تطيح برأس زوران .. كما أن مفعول المخدر لم يزل عنها بعد.

قلت في ذعر:

- ماذا تعني؟ هل تعني أنها... اختطفت؟
- لم أعني ذل...

وأمسك عن الكلام فجأة، قبل أن يقول:

- هل يمكن أن يكون... ماجد؟!

قلت في ذهول:

- ماجد!!

ورأيت القبطان يضغط على أسنانه من فرط الغضب، وصاح بالرجل بمنتهى الحدة:

- أديروا الدفة .. سوف نلحق بسفينة ماجد حالاً.
- أمرك يا قبطان.

وسمعته وهو يغمغم في حنق مضطرد:

- الويل لك مني يا غادر يا بن الغادرة .. أقسم أن أرسلك إلى الجحيم إرباً كثيرة.

مرت ساعات وساعات، وأقبل الليل مسدلاً ستائره، وحاجباً عنا كل أمل في الرؤية، وما زاد الطين بلة أن القمر كان مختفياً تماماً في هذا المساء.

أقبل أحد الرجال، ويدعى أبا سُلمى، نحو القبطان، الذي كان يقف فوق مقدمة السفينة وقال له:

- سيدي .. ننتظر منك الأوامر.

نظر إليه القبطان بطرف عينه وقال:

- أخبر الرجال أننا لن ننام ولن نستريح ولن نتوقف أبداً حتى نعثر على سفينة ماجد.
- ولكن...

قاطعه القبطان في حدة:

- ماذا ستقول؟ أتريد أن تعارضني؟ أجننت أيها الأحمق؟

أسرع أبا سُلمى يعتذر مذعوراً ويطلب الصفح والسماع، فصاح به القبطان:

- أغرب عن وجهي.

ونظر نحوي وقال:

- لا تقلق يا بني .. سوف نستعيدها عمَّا قريب .. وستكون بخير.

أقبل الصباح، وما زالت السفينة تزرع المحيط بحثاً عن سفينة ماجد، وشعر الرجال باليأس يدب فيهم، ولولا خوفهم من القبطان، لخارت قواهم منذ أمد طويل.

أقبل سلَّام وقال:

- سيدي القبطان .. الرجال منهكون .. نحتاج قسطاً من الراحة.
- ألم يخبرك أبو سُلمى أنني قلت لا راحة حتى نعثر على سفينة ماجد.

فسألته وقد استبد بي اليأس أنا أيضاً:

- ولكن .. ماذا لو طال بحثنا ولم نجدها؟
- لن يحدث ذلك .. لقد أردت أن أجدها .. وسأجدها .. وأجدك أنت أيضاً يا ماجد.

وما كادت تمر بضع دقائق أخرى حتى صاح المراقب فوق البرج:

- هنااااك.

انتبه جميع من بالسفينة إليه فيما أردف:

- وجدنا سفينة ماجد أيها القبطان.

وسرت في الأنفس طاقة غريبة، وتحول الإنهاك والتعب والشعور بالنعاس، إلى نشاط وحيوية مبالغ فيهما.

وسرى النشاط في جسدي أيضاً، بعد أن ظننت أنني سأسقط مغشياً عليَّ من فرط التعب.

صاح القبطان وهو يقف على مقدمة السفينة بمنتهى الحماس:

- إلى الأماااااااام.

وصاح رجال الطاقم:

- هاااااااااي.

لكني فجأة وجدتي أهتف بقوة:

- توقفوا.

فتحولت الأعين كلها تجاهي، وقال القبطان بشيء من الحدة:

- أعلم أنك خائف على زوجتك .. لكن أياً كان السبب .. فلا يحق لأحد أن يصدر الأوامر هنا غيري.
- عذراً يا سيدي .. لكني....

قاطعني بحدة:

- لا أعذار .. سأسامحك هذه المرة فقط لأنك غريب وجديد .. بالإضافة لأني متأكد أن لديك سبباً قوياً لتقول ذلك.

- الحق ما نطقت به يا سيدي .. لدي سبب قوي جداً.
- قل.

بدأت أشرح له وجهة نظري، فقلت:

- أخاف يا سيدي القبطان إن هجمنا على سفينة ماجد أن يحتمي بسارة .. ويهدد بقتلها لو اقتربنا منه .. وبهذا لن نظفر به .. أو لن نظفر بسارة حيَّة.

قال أحد الرجال متهكماً، وكان أضخمهم جسماً:

- هه .. رجل يحتمي بامرأة! هذا لا يمكن أن يحدث أبداً.

تمتم القبطان كأنما يحدث نفسه:

- لكن ماجد مستعد أن يفعل أي شيء للنجاة بحياته.

قلت له:

- لدي حل يا قبطان.
- قل يا عادل.
- أري – إن سمحت لي – أن تؤمن ماجد على حياته.

ثارت ثور الرجال، بينما هتف القبطان مشدوهاً:

- ماذا تقول؟! أتعني أن أعفو عنه؟

قلت وأنا أنظر صوب الأرض بخجل:

- إحم .. نعم يا سيدي.

صاح سلام فيَّ بقوة:

- ماذا تقول؟ هل جننت يا رجل.

وصاح آخر:

- لا تسمع له أيها القبطان .. نحن ننتظر هذه الفرصة منذ أمد.

وقال ثالث والغضب يكاد يفتك به:

- سيدي هشام .. هذه فرصة قد لا تأتي سوى مرة واحدة في العمر .. ليس كل يوم نرى ماجد بهذا الضـــعف .. كل يوم يتزايد رجاله .. وخطره أيضاً.

هتف القبطان محدثاً رجاله:

- إذاً ما الرأي.

صاح الرجال في صوت واحد:

- سحق ماجد .. أياً كان الثمن.

لوح القبطان بيديه في الهواء وهو ينظر إليَّ ولســـان حاله يقول: هل رأيت، مستحيل ردعهم. ثم إنه نظر إلي نظرة عطف أول مرة أراها بعينه، قائلاً:

- أعلم أنك قلق على زوجتك .. لكنك لا تدري ما فعله ماجد وما لديه القدرة على فعله .. لقد قتل وسرق ونهب وعذب أكثر مما يمكنك أن تتصور .. ربَّما هو أكبر جبار على الأرض في هذا العصر .. ولولا اندفاعه المتهور اليوم .. لما ظفرنا به في هذه الحالة من الضـــعف أبداً.

قلت له:

- هزمتموه اليوم بلا خســـائر تذكر من جهتكم .. ويمكنكم هزيمتـه من جديد.

ردَّ قائلاً:

- بعد أن يكون قتل كم شخصاً؟ ربما أنت محق يمكننا هزيمته مراراً .. لكن إن أعطيناه فرصـة للفرار .. سيسفك الدماء .. ويرمل الأطفال .. ويهتك أعراض الحرائر.

غاص قلبي بين ضـــلوعي حين نطق بعبارته الأخيرة، فشـــعر بما خالجني من شعور فأردف:

- لكن لا تقلق .. ليس في مزاج يســـمح لـه بارتكاب فعل قذر كهذا بعد خسارة كل هذا العدد من رجاله.

وحدثت نفسي: أتمنى ذلك.

ثم قلت له:

- هناك حل آخر .. حل يعيد إليَّ ســا... – عفواً – زوجتي .. وفي ذات الوقت يجعلك تظفر بماجد ومن معه.

هتف بحماس:

- قل بسرعة يا فتى .. ما هي خطتك؟

(٢٧) الشيطان

«خطة رائعة ...»

هتف بها القبطان بعد أن أخبرته بخطتي، وأردف:

- أظن أنها ستنجح.

ونظر إلى سلام آمراً إياه:

- أعطه سيفك يا سلام.

أخرج سلام السيف من مكمنه، وقال بحماس:

- هاك سيفي .. ننتظر منك أخباراً طيبة أيها بطل.

ورحت أتحدث مع القبطان لبعض الوقت، وفي النهاية وضــع القبطان كفَّه على كتفي قائلاً:

- عد سالماً بزوجتك يا بني.

ابتسـمت له، لا أعلم إن كانت ابتسـامتي هذه نابعة من قلبي أم مصـطنعة أجامله بها.

انطلقت أعدو مسـرعاً نحو حافة السـفينة، ثم لم ألبث أن ألقيت بجسـدي منها، لأسقط في المحيط.

ورحت أسبح، وأسبح، إلى أن وصلت إلى سفينة ماجد. وكانت المرساة مستقرة في القاع. فأخذت أتسلق عليها، وصعدت إلى ظهر السفينة.

كانت الأجواء عليها هادئة مستقرة، وبعض الرجال على ظهر السفينة يغطون في نوم عميق.

ورحت أقلب البصـر فيهم بحثاً عن ماجد، كان القبطان قد أخبرني عن مواصفاته:

- إنه رجل نحيف الجسـد، متوسـط الطول، لديه ثلاثة وأربعون عاماً. شاهق بياض البشرة، شاهق سواد القلب، له فوق رأسه شعر يصل إلى نصف ظهره من الطول، ويده اليسرى عليها وشم على شكل رأس ذئب .. تذكر يا عادل .. من السهل تمييزه بين ألف ألف رجل.

وتذكرت أيضاً قوله:

- إن حدث وتبارزت مع ماجد .. فاعلم أنه مندفع متهور .. ماهر جداً في القتال .. ماهر جداً في الخداع .. لذا إن سقط .. فلا تعطه فرصة للنهوض.

نظرت للرجال النائمون، إنه ليس فيهم، لابد أنه في مكان ما في السفينة.

فأسرعت وخبأت السيف داخل برميل من براميل السفينة. ثم ألقيت نفسي في الماء.

رحت أصرخ وأصيح:

- النجدة .. ساعدوني .. أرجوكم ليساعدني أحد.

ووسط صراخي واستغاثتي، نجحت في لفت أنظار الرجال فوق ظهر سفينة ماجد. ووجدت صاحب المواصفات المطلوبة – ماجد – ينظر بنفسه إليَّ ويأمر رجاله أن يخرجوني من الماء.

- ما هي حكايتك؟ وكيف وصلت إلى هنا؟

سألني ماجد هذا السؤال، نبرته في الحديث معي أوحت لي كم هو مغرور متعجرف. لكني أجبته مصطنعاً المرض:

- لقد ألقيت بنفسي عن ظهر سفينة القبطان هشام في الماء بعد أن كاد يقتلني.
- يقتلك؟ لكن لماذا؟
- يزعم أنني دخلت حدوده دون أن يأذن لي.

قال في شرود:

- أما زال يظن أن البحر ملك له؟ ألم تكفه صفصافة؟ لا بأس .. سوف أنتقم منه يوماً ما.

فقلت له:

- سيدي .. هل تسمح لي أن أكون واحداً من رجالك؟ أنا بارع في استخدام السيف .. كما أني أجيد السباحة، والمصارعة، والقراءة والكتابة.

نظر نحوي نظرة متفحصة، وقال:

- تبدوا لي مكسباً بالفعل .. حسناً سأضعك في اختبار .. وإن اجتزته صرت أحد رجالي.
- سوف أجتازه بلا شك .. لكن ماذا لو لم أستطع اجتيازه؟ ماذا ستفعل بي؟

ضحك ضحكة عالية، وضحك طاقمه لضحكه، وأردف قائلاً:

- لا شـــيء .. لن أفعل أي شـــيء .. لأنك لو لم تنجح في اجتياز هذا الاختبار فهذا معناه أنك قد مت.

ازدردت لعابي، يبدو أنني تسـرعت في طرح هذا السـؤال، ها أنا الآن حياتي صارت على المحك. قلت بشيء من التوتر:

- ما هي طبيعة هذا الاختبار بالتحديد؟

ضحك لثوانٍ معدودة، ثم قال بشيء من الخبث:

- سـتعلم كل شـيء في أوانه .. لكن يبدو عليك المرض جلياً .. سـوف أدعك ترتاح اليوم .. وغداً يكون لنا حديث آخر.

وأمر بعض الرجال أن يأخذوني إلى القمرة لأستريح.

وكنت متعباً بحق، لكني ادَّعيت المرض أكثر مما ينبغي، كل هذا لأنني أريدهم أن يشعروا بأني لا أمثل أي خطر عليهم وأنا في هذه الحالة، وقد كان.

وانتظرت حتى جنَّ الليل. ونام من نام من الرجال، وبقي مستيقظاً للحراسة من بقي.

وتسللت خارجاً من القمرة إلى ظهر السفينة، لأجد القبطان واقفاً يتأمل النجوم. فكرت: هذه هي اللحظة المناسبة لأتقرب فيها من ماجد.

- ما زلت مستيقظاً أيها القبطان؟

نظر إليَّ:

- استيقظت أخيراً؟
- أراك شارد الذهن يا سيدي.

بغرور وفظاظة بلغا آخرهما قال لي:

- من أنت لتتحدث معي أيها الحثالة القذر؟
- لا بأس .. أنت قائدي الآن .. لك مني الولاء والطاعة .. لكني أجزم أنك تحب.

رفع أحد حاجبيه في دهشة وقال:

- كيف عرفت؟
- أنا لست إنساناً عادياً.

والحقيقة أن أي شخص لو رآه في هذه الحالة لعلم أنه غارق في الحب، غارق حتى الثمالة.

ابتسم قائلاً:

- يبدو أنك فطن بالفعل.

قرأت فيما مضى كتاباً صغيراً رائعاً عنوانه "حب بلا حدود" وكان مما ذُكر فيه: إذا أردت أن تجعل أي شخص يحبك، فاجعله يستمتع بصحبتك لأقصى درجة، ولكي تفعل ذلك فهناك عدة أمور منها: *تحدث عما يحب الشخص الآخر.*

لذا فكرت أن أتحدث عن الحب، لأنه أكثر ما يتوق إليه ماجد في هذا الوقت. فقلت له:

- أتعلم يا سيدي أن أجمل ما في الدنيا هو الحب؟
- أجل يا .... بالمناسبة .. لم تخبرني عن اسمك.
- عادل .. اسمي عادل يا سيدي.
- هل مررت بتجربة حب من قبل يا عادل؟

ابتسمت وقلت:

- مرة واحدة فقط .. شعرت فيها أن قلبي يحلق في غرفة بلا سقيفة .. كان أجمل شعور أحسست به في حياتي.
- هل كانت جميلة؟
- من؟ محبوبتي؟ كانت ملاكاً يسير بين البشر .. الروعة تجسدت في أنثى .. يقولون أن المحب لا يرى مساوئ محبوبته .. لكني كنت أعلم مساوئها .. كنت أعلمها أكثر من أي شخص آخر .. لكني لم أكن أراها مساوئ .. بل كانت أجمل ما فيها من وجهة نظري .. أتعلم يا سيدي .. فيما مضى كنت شخصاً ضعيفاً، جباناً، منبوذاً، يبدو أن الحياة كنت أولتني ظهرها .. لكن ما أن وقعت بالحب حتى تغيرت تماماً طلباً للمحبوبة .. فصرت أقوى بكثير .. أشجع بكثير .. أكثر شخص محترم في بيئتي.

سألني ذاهلاً:

- كل هذا بسبب الحب؟

اصطنعت الشرود وقلت:

- نعم كل هذا بسبب الحب.

ثم رحت أنشد شعراً قرأته ذات يوم، وكان للشاعر الكبير، نزار قباني، فقلت:

- إني عشقتك واتخذت قراري
فلمن أقدم يا ترى أعذاري
لا سُلطةً في الحُب تعلو سلطتي
فالرأي رأيي والخيار خياري
هذي أحاسيسي فلا تتدخلي
أرجوكِ بين البحر والبحار

قال شارداً:

- يا الله .. ما أجمل هذا الكلام .. هل هو كلامك أنت يا عادل؟

اضطررت لأن أكذب فقلت:

- نعم يا سيدي .. هو كلامي.
- أحسنت حقاً أيها الشاب .. أتعلم .. من اليوم أنت صديقي.

ابتسمت وقلت:

- لي الشرف يا سيدي.

ورغم ابتسامتي، إلا أن قلبي كان يغلي، فمهما يحدث، لست أنا الذي يخون الصداقة.

لقد عزمت واتخذت قراري. لن أقتل ماجد. أنا لست بخائن. سأكتفي باختطاف سارة، والرحيل. لكن الرحيل إلى أين؟ لا يوجد مكان سوى سفينة القبطان هشام، وهو لا شك قاتل ماجد فور عودتي.

ماذا أفعل؟

إلى أين أذهب؟

كيف أتصرف؟

ساعدني يا إلهي.

وما أن ذهب ماجد كالمنوم مغناطيسياً، حتى شرعت أبحث عن سارة في كل شبر على السفينة.

ووجدتها...

وجدتها في آخر مكان كنت أتوقعه...

قمرة القبطان ماجد!

لقد كانت هي محبوبته التي يحدثني عنها!

كان يعاملها بلطف. يحاول التودد إليها. وهي تظهر له البغض والعداوة عياناً بياناً، لكنه صبور عليها لأبعد حد.

في اليوم التالي، رأتني سارة، فأشرت لها أن تدَّعي أنها لا تعرفني، ورأيت أحد الرجال يقول لي:

- القبطان ماجد يريدك.
- ماذا يريد؟

ضحك الرجل وقال:

- الاختبار سيبدأ الآن.

اختبار؟ ظننت أن ماجد صار صديقي حقاً. يبدو أن كلام القبطان هشام حقيقة. إن ماجد لا صديق له.

وقفت أمام ماجد الذي كان متكئاً على مقعده الكبير، يمسك بيده كوباً ضخماً مملوءً بالنبيذ الأحمر، وحين رآني، هتف:

- الآن يبدأ الاختبار؟

أسرعت بالقول:

- مهلاً، مهلاً .. يجب أن أعرف ما هي طبيعة الاختبار أولاً.

ضحك وقال:

- لا بأس .. أخبره يا عوّان.

فتقدم مني رجل مفتول العضلات بشكل مخيف، وقال:

- الاختبار بسيط جداً .. سوف تقاتل أحد رجال الطاقم بهذه العصا الخشبية.

وألقى ناحيتي هراوة خشبية، فقلت له:

- يبدو اختباراً سهلاً.

ضحك الجميع بأعلى أصواتهم حتى شعرت بحرج شديد، وأردف عوان:

- سوف تقاتل بهذه العصا شخصاً يمسك سيفاً حقيقياً.
- ماذا؟! ومن هو هذا الشخص يا ترى؟

قال عون بفخر:

- أنا.
- لكن هذا ظلم.

هتف ماجد:

- خطأ .. بل إن هذا ممتع.

ما يظنني هؤلاء الحمقى؟ مهرج يتضاحكون عليه متى أرادوا، ويتخلصون منه متى انتهى من فقرته. يريدون المتعة؟ ليكن. سأريهم المتعة الحقيقية.

أمسكت الهراوة، وقلت بمنتهى الثقة:

- أنا مستعد.

قال ماجد:

- يبدو أنه شجاع بالفعل.

أخرج عوَّان سيفه، وتلاعب به مستعرضاً مهارته الكبيرة.

وصاح ماجد:

- لتبدأ المبارزة.

وصاح الرجال في نفس واحد:

- عوان .. عوان .. عوان ....

فتقدم الأسمر مفتول العضلات مني بخطوات واثقة وسريعة، وضرب بسيفه ضربة أفقية كادت تطيح برقبتي، لكني تفاديتها، فأسرع يحاول قسمي نصفين بالعرض، لكني تفاديت هذه الضربة أيضاً.

وفجأة ركلني في صـدري ركلة عنيفة لم أتوقعها. فهويت على الأرض، حاولت النهوض بصـعوبة، لكن دون جدوى. ووجدته يقف عند رأسـي، شـاهراً سـيفه لأعلى بكلتا يديه، وتنبأت بالحركة القادمة، في أقل من ثانية واحدة، سـأكون نصفين، سيقسمني طولياً.

يا إلهي ساعدني.

وهتف ماجد:

- اقض عليه فوراً يا عوان.

فصاح كأسد غضوب وهو يهوي بسيفه البتار، نحو رأسي...

* * *

(٢٨) نهاية الشيطان

هوى عوان بسيفه البتار يريد شقي نصفين متساويين طولياً. لكني في تلك اللحظة، رفعت هراوتي الخشبية بين قدميه، لأضربه في أكثر المناطق حساسية لدى الرجال.

ولك أن تتخيل كم كانت الضربة قاسية وعنيفة. وقع السيف منه على الأرض، ثم هوى هو أيضاً على الأرض بجوار سيفه يتأوه من شدة الألم. فأمسكت سيفه، وأشرت نحو رقبته، لم أرد قتله، إنما أردت أن أظهر فقط أنني تغلبت عليه. لكن ماجد لم يفهم هذه النقطة جيداً، فظن أنني أريد قتله، وهذا حق مشروع لي، لكنه صاح في أحد رجاله:

- أوقفه قبل أن يقتل عوان.

فأسرع هذا الرجل يشهر سيفه ويسرع نحوي. يريد ضرب عنقي، لكني بحركة لا إرادية تصديت لسيفه بالسيف الذي أمسك به، فهوى السيف من يدي مستقراً على الأرض. وصرت أعزلاً أمامه.

أخذت أتراجع، والرجل يقترب وهو يضحك:

- أنت هالك لا محالة.

أخذت أتراجع أكثر، وأكثر حتى التصقت بسور السفينة، ولم يعد هناك مكان للفرار إليه.

أشـــهر الرجل ســـيفه وكاد يهوي على رقبتي، فنظرت بجواري، فإذ بي أرى البرميل الذي خبأت فيه السيف، فوضعت يدي داخل البرميل بسرعة، وأخرجت السيف وهويت به على رقبة هذا الرجل، بأسرع ما يمكنني، فطاحت عن جسده على الفور.

تفاجأ ماجد، واعتدل في كرسيه متسائلاً:

- من أين أحضرت هذا السيف؟

وهنا خرج أحد الرجال من القمرة وقال له:

- سيدي لقد هربت الأسيرة.
- سارة؟

هتفت بمنتهى السعادة:

- رائع.

ثم أدركت فجأة أنني ارتكبت أكبر خطأ في حياتي كلها. إذ نظر الجميع إليَّ مشدوهين، وقال ماجد بغضب عارم وهو يشير بسبابته نحوي:

- أنت من أتاح لها فرصة الهرب .. أيها الوغد الخائن.

فقلت له:

- نعم .. إنها محبوبتي التي حدثك عنها بالأمس .. أيها القبطان المغفل.

فصاح بأقصى قوة قائلاً لرجاله:

- اقتلوه.

فتدافعوا نحوي كل منهم شـاهراً سـيفه في وجهي، ولم أجد أمامي مفر. سـوى القفز عن السفينة.

فأسرعت وقفزت في الماء.

وسمعت ماجد يصيح فيهم:

- أحضروا السهام .. لا أريد له أدنى فرصة للنجاة.

كان عليَّ أن أغوص تحت الماء، لأعمق نقطة يمكن أن أصـل إليها، لأتمكن من الاختفاء عن أنظارهم، وعن سـهامهم، إلى أن أبتعد حتى أصـل إلى سـفينة القبطان هشام.

وما كدت أغوص وأختفي تحت الماء حتى صاح ماجد بجنون:

- أمطروا الماء من كل جانب بالسـهام .. حتى لا يتمكن هذا الوغد من الفرار .. أريد أن أرى دماءه القذرة تلوث سطح الماء.

لم أعد أحتمل البقاء أكثر تحت الماء، إنني أختنق، سـأموت لو لم أطفو حالاً، وصعدت إلى سطح الماء.

- ها هو.

كانت هذه صـيحة أحد رجال ماجد حين رآني وأنا أطفو. ووجدت العديد من الأسـهم مصـوبة نحوي، لن أنجح إن حاولت الغوص الآن، سـأكون بذلك قد عجلت بموتي. يبدو أنني هالك لا محالة.

أخرجوه من الماء. ولم يكن أمامي وسـط هذه السـهام المصـوبة إلى قلبي إلا أن أتسـلق الحبل الذي ألقوا إليَّ به. وما كدت أعود إلى ظهر السـفينة حتى دوت صيحة عالية جداً:

- ماااااااااجد.

انشرح صدري، فأنا أعلم صوت من هذا، إنه القبطان هشام. اضطرب الرجال فجأة. والتفت ماجد مسرعاً نحو مصدر الصوت، والتفت جميع الرجال، وأنا معهم، فإذ بسيدة المحيط تشق الماء شقاً بأسرع ما يكون نحو سفينة ماجد، حتى وصلت إليها.

وارتطمت بها بعنف، مما جعل رجال ماجد جميعاً – وأنا معهم – يضطربون في حركاتهم جراء فقد السفينة توازنها، وتقريباً سقط جميع من بالسفينة أرضاً، عدا ماجد، لقد أذهلني بقدرته على الثبات وعدم السقوط وسط هذه الأجواء المضطربة.

انقض رجال القبطان هشام على سفينة ماجد، على رأسهم أبا رافع، انقضاض قطيع من الأسود الجائعة، على فريستهم من الغزلان الشهية.

وأنشأوا يذبِّحون فيهم بلا أدني شفقة أو رحمة. وانتهوا منهم تماماً في أقل من خمس دقائق. لكن ماجد كان قد هرب بعد أن قتل خمساً من رجال القبطان هشام.

سار القبطان هشام بين صفوف القتلى، وحين لم يجد جثة ماجد، صرخ صرخة مدوية، أشبه بزئير أسد يتألم. ثم صاح:

- ماجد .. أينما كنت .. اخرج وواجهني يا جبان.

أخذت أسير على ظهر السفينة مفكراً كشارلوك هولمز: أين يختبئ ماجد؟

لقد قتل هذا الرجل، ثم هذا الرجل، بعدها حاول هذا الرجل ردعه لكنه ذبحه هو الآخر، من الاتجاه الذي سار فيه طبقاً لهذا الترتيب، يبدو أن ماجد.... يا إلهي!

وأسرعت أقول للقبطان:

- ها هو ماجد .. فوق الصاري.

نظر الجميع لأعلى دفعة واحدة، ليروا ماجد متشبثاً بالصاري كفأر مذعور.

قال القبطان هشام:

- هذه هي قيمتك الحقيقية بدون المجرمين الذين كانوا معك .. جبان رعديد.

قال ماجد متوسلاً:

- أبا رافع .. أيها الشهم الكريم .. اعف عني عفا الله عنك.
- لا لن أعفوا عنك أبداً .. لقد قتلت الأطفال .. ورملت الزوجات .. وهتكت الأعراض .. وتريدني بعد كل هذا أن أعفو عنك؟! هذا مستحيل.
- إذاً أنا أعرض عليك المبارزة .. وجها لوجه .. وإن فزت عليَّ ملكت رقبتي .. وإلا أعتقتني.
- تتحداني.

همست في أذن القبطان:

- ارفض يا سيدي .. انه هالك لا محالة إن أنت رفضت عرضه.
- لا يمكنني رفض عرضه يا عادل .. العربي حين يتحداه شخص ما .. فإن رفض التحدي دليل على عدم اكتمال الرجولة.

غمغمت في نفسي: يا للحماقة.

- حسناً يا ماجد .. أنا موافق.

نزل ماجد عن الصاري وهو يبتسم ويقول:

- علمت أنك لا يمكن أن ترفض يا أبا رافع.
- لأني رجل.

قالها وهو يشهر سيفه، فرد ماجد وهو يفعل ذات الشيء:

- بل لأنك أحمق.

وبدأ النزال. وكانت مبارزةً لم أشهد بقوتها يوماً، استبسل الرجلان وأديا أفضل أداء يمكن لعين رائي أن تنظره في هذا المجال.

وكانت الأجواء متوترة بشكل مرعب. تارةً تظن أن القبطان هشام تمكن من غريمه، لكن ماجد ما يلبث أن يعود، وتارة ما يتمكن ماجد من أبا رافع، لكن الأخير سرعان ما يعود بشكل يذهل الجميع.

وأخيراً ثارت ثورة القبطان هشام لشيء قاله ماجد، فظل يضرب بالسيف يمنة، ويضرب به يسرة، يضرب بسرعة، وبقوة، وبمهارة، وظل على هذا المنوال إلى أن صاح وهو يضرب فانقسم سيف ماجد إلى نصفين، ووسط دهشة من الجميع، ألقى ماجد سيفه على الأرض، ولوح بيديه الخاويتين قائلاً:

- أتقتل رجلاً أعزلاً .. يا للعار .. هذا ليس من الرجولة في شيء.

فألقى القبطان هشام السيف من يده، قائلاً:

- ها أنا .. بيديَّ العاريتين .. سأمزقك إرباً .. سأجعلك تتمنى لو قتلتك بالسيف.

وبدأ الالتحام، وتحولت المبارزة إلى مباراة في المصارعة. وكم كانا رائعين في ذلك أيضاً...

لكمة من اليمين. ركلة من اليسار. لويٌ للذراع خلف الظهر. ضربة قوية بالمرفق... وظلت المباراة عالمية إلى أن حدث ما غير قلب الأوضاع رأساً على عقب.

إذ فجأة لاحظت أن ماجد – بعد سقوطه – وضع يده خلف ظهره. أدركت على الفور ما يريد أن يفعله.

كم أنت خائن يا بن الـ.....!

وركضت مسرعاً، بأقصى ما يمكنني، وأمسكت بسيف القبطان هشام – الذي ألقاه أرضاً منذ قليل – وقفزت في الهواء قفزة عالية، في اللحظة التي أخرج فيها ماجد خنجراً من خلف ظهره، واستعد لطعن القبطان. لكني كنت أسرع إذ هويت بالسيف فوق رأس ماجد تماماً، فانشطر نصفين، في مشهد مهيب، ومروع في ذات الوقت.

وللحظة ساد صمت مطبق فوق ظهر السفينة، وقال القبطان، ولم يفق من ذهوله بعد:

- لقد أنقذت حياتي.
- كان سيقتلك غدراً.
- هذا جزاؤه.

ثم التفت إلى رجاله وهتف:

- لقد مات الشيطان.

فصاحوا جميعاً بصوت واحد، وهم يلقون السيوف والقبعات في الهواء:

- هاااااي.

وتقدم سلام متسائلاً:

- لقد حققنا هدفنا يا سيدي .. ما هي أوامرك الآن؟
- شدوا الرحال .. سنعود الآن إلى صفصافة .. وهناك سيكون الاحتفال الكبير.

وقال سلام:

- لقد سمعتم القبطان .. هيا إلى العمل .. هيا.

* * *

(٢٩) خطة عبقرية

دار بيني وبين سارة حوار طويل أفهمتا فيه ما حدث:

- بعد أن خطفكِ ماجد من فوق ظهر السفينة .. صمم القبطان هشام أن يجوب المحيط بحثاً عن سفينة ماجد .. كل هذا لكي ينقذك.
- يا له من رجل نبيل.
- هو كذلك يا سارة .. المهم .. بعد أن وجد السفينة .. أراد أن يهجم عليها .. لكني أوقفته عن الهجوم وأخبرته أن لديَّ خطة لإنقاذك.
- وماذا كانت خطتك؟
- ألم تفهمي بعد؟ حسناً سأقول لك .. أخبرت القبطان أن الخطة تقتضي أن أقفز في الماء، وأسبح حتى أصل إلى سفينة ماجد فأتسلل إيها دون أن يشعر بي أحد .. وأخفي السيف في مكان ما فوق ظهر السفينة .. ثم أعود إلى الماء .. وأصرخ وأصيح طلباً للنجدة .. وحين يخرجوني من الماء .. أخبر ماجد أن القبطان هشام أمسك بي وقتل رجالي .. وقال أننا كنا نبحر في حدوده .. وعقابي هو الموت كما فعل مع رجالي .. وحين يسألني ماجد كيف هربت منه؟ أخبره أنني غافلت رجاله وألقيت بجسدي في المحيط وأني ظللت أسبح يوماً بليله إلى أن وصلت إلى سفينته .. حينها سيأمن ماجد جانبي .. وسيسمح لي بالبقاء معه في سفينته .. لأن عدونا واحد .. وإن تعاوننا فربما ننجح في القضاء عليه .. وبعد ليلة أو اثنتان .. أتمكن من الوصول إليك فنلقي بأنفسنا بالماء لنلحق بسفينة القبطان هشام .. وريثما نصل ينقض القبطان برجاله على سفينة ماجد فيبيدوهم عن بكرة أبيهم.

قالت سارة:

- لحظة واحدة .. تقول أنك ســتحاول بعد ليلة أو ليلتين أن تلتقي بي .. وتجعلني أقفز معك عن ظهر السفينة .. لنلحق بسفينة القبطان هشام.
- أجل.
- لكن من قال أن ماجد ســيظل معســكراً في هذا المكان لفترة طويلة؟ لربما يذهب وحينها لن نجد سفينة القبطان هشام أبداً وسنهلك غرقاً.
- ظننتكِ اسـتوعبتِ هذه النقطة جيداً .. لقد رتبت مع القبطان هشــام أن يبقى على مسافة ثابته من سفينة ماجد .. حتى إذا تحرك ماجد مسافة معينة .. يتحرك معه القبطان بنفس مقدار حركة الأول .. بحيث يظل على مسافة نصف كيلو متر من سفينته .. هل فهمتِ هذه النقطة؟
- تقريباً.
- لكن الخطة حدث بها بعض التغيير الطفيف .. فأخبرتك أن تهربي في الوقت الذي يكونون مشـغولين به معي في الاختبار الذي وضــعوني به .. وهكذا وصـلتي بأمان إلى هذه السـفينة .. وتمكن القبطان هشـام من التدخل في الوقت المناسب تماماً قبل أن تفارق روحي الجسد.
- يا لها من خطة عبقرية.

وقلت في هيام:

- ويا لكِ من فتاة جميلة.

وسمع القبطان عبارتي الأخيرة، إذ كان يمر بجوارنا مصادفة، فعلق قائلاً:

- ويا لها من ليلة يحلو فيها الغزل!

احمر وجه سارة خجلاً، وتلعثمت وأنا أقول:

- سيدي القبطان .. أنا...

قاطعني قائلاً:

- لا تقل شيئاً يا بني .. إنها بعيدة عنك منذ فترة .. أتعلم؟ لقد كنت أحب زوجتي كما تحب أنت زوجتك .. وربما أكثر.

ثم تنهد مردفاً:

- ليرحم الله روحها .. هيا اذهبا الآن إلى النوم .. سوف نصل إلى صفصافة مع أول شعاع للشمس .. ويجب أن تكونا متيقظان حينها. للاحتفال معنا بنهاية هذا الطاغية المستبد.

وبعد انصراف القبطان، قالت سارة:

- ما الذي تحدث القبطان عنه منذ قليل؟ أيظن أننا متزوجان؟!
- صه يا سارة .. لو علم أننا لسنا متزوجين لقطع رقابنا .. نصل إلى صفصافة أولاً .. وبعدها نتحدث في هذا الأمر كم يحلو لك.

* * *

(٢٠) صفصافة

وصلنا إلى صفصافة مع شروق الشمس كما قال القبطان تماماً. وكم كانت جزيرة عجيبة بحق!

كان الرجال لا يهتمون كثيراً بثيابهم، إذ يرتدي معظمهم أسمالاً شبه بالية، والقليل منهم فقط يرتدي رداءً وقوراً. والنساء يرتدون جلابيب فضفاضة، ويضعون الحجب على رؤوسهن ووجوههن.

وبغض النظر عن موضوع الثياب، كانت صفصافة تذكرك بالأجواء العربية القديمة التي نراها في أفلامنا عن العصر الجاهلي.

البيوت قديمة، من الطوب اللبن، والسوق تعج بالمشترين والبائعين.

- هل يوجد عبيد هنا؟

سؤال ساذج، ألقت به سارة على أسماع سلّام وهو يصحبنا في جولة في الجزيرة، فقال بلا مبالاة:

- كان ذلك منذ زمن بعيد .. وكان ماجد ليعيد تجارة الرقيق لو استطاع التخلص من القبطان أبا رافع.

وصلنا إلى بيت يصدر منه عزف غاية في الروعة والجمال، ووقفت سارة مغمضة العينين، تتمايل برأسها مع أنغام الموسيقى. كنت أنا أيضاً سعيد بما أسمع، وسألت سلّام:

- بيت من هذا؟
- هذا بيت بن المعتز.
- ومن هو بن المعتز هذا؟
- إنه أكبر العازفين قيمة، وأكثرهم مهارة في صفصافة كلها.

فقالت سارة:

- إن موسيقاه بديعة جداً.
- لكن ليس هو الذي سمعتماه يعزف هذه الموسيقى.
- ولكن من إذاً؟

أشار إلينا بسبابته أن نقترب، ونظر وجعلنا نلقي نظرة من نافذة المنزل، فإذ بي أرى فتاة تجلس خلف آلة موسيقية غريبة أخبرني سلام أن الفتاة تدعى: رئيفة، وأن هذه الآلة التي تعزف عليها تدعى (السانال)، وأن بن المعتز هو من صنعها، وهي عبارة عن قرص خشبي مستدير مفرغ من مناطق محددة وملئ بالأوتار في مناطق أخرى.

كان عزف هذه الآلة رائعاً بحق، وكانت الفتاة التي تعزف شديدة الجمال، ترتدي جلباباً أزرق مرصَّع بالمجوهرات والأحجار الكريمة.

وأمامها يجلس عدد من المستمعين مأخوذين بألحانها وجمالها. والشخص الوحيد الذي لفت انتباهي بين الحضور، هو القبطان هشام. حتى أنني قلت مشدوهاً:

- أبا رافع هنا؟

فأجابني سلام:

- إنه صديق بن المعتز .. ومعجب كبير بموسيقاه هو وابنته.

والتفت القبطان فجأة نحو النافذة، ووقع بصره علينا، وللأمانة شعرت بالفزع كطفل صغير رآه والده وهو يفعل فعلاً خاطئاً. لكنه ابتسم وأشار إليَّ بيده أن أدخل، فقال سلام:

- هيا يا عادل .. لا ترفض دعوة القبطان .. الباب من هنا.
- نعم .. ولكن سارة .....
- لا تقلق .. هناك مكان للنساء في الخلف يستمعون فيه للموسيقى .. بحيث لا يراهن الرجال .. سأصطحب سارة إلى هناك.
- لا يا سلام .. أنا سأصحبها إلى هناك.
- كما يحلو لك .. باب دخول النساء من هنا.

وأدخلت سارة إلى مجلس النساء. ودلفت أنا إلى مجلس الرجال، لكن كان هناك رجل واقف على باب البيت قال لي قبل أن أدخل أن أدفع له عشرين (باركو)، عشرة عني وعشرة عن سارة، فتساءلت:

- عشرين باركوا؟! وما هو الباركو؟

فأخبرني سلام أنه العملة المتداولة في صفصافة، ثم أخبر الرجل أنني تابع للقبطان هشام، فسمح لي بالدخول دون أن أدفع. وذهبت إلى حيث يجلس القبطان، ورحب بي وأجلسني بجواره، ورحت أرقب جمال الفتاة بعيني، وأسمع موسيقاها بأذني، لتنفذ إلى روحي، وتنقلني إلى عالم آخر من السحر والخيال.

بعد عدة دقائق انتهى العزف، وانتهى معه الحلم الجميل، ألقى القبطان نظرة عابرة للخلف – حيث النساء يجلسن – ثم عاد إليَّ وقال:

- ما رأيك؟

فأجبته بهيام:

- إن موسـيقاها تنفذ إلى الروح .. جذبتني من عالم الأحياء .. إلى عالم آخر .. عـالم من الجمال أوجد .. وللجمال كان .. وبعزفها سُـــمح لي بالدخول .. و ....

قاطعني قائلاً:

- مهلاً، مهلاً أيها الشـاعر الولهان .. يبدو أنها سـحرتك أنت أيضـاً كما سحرت غيرك المئات.

صمتت لأني لم أجد ما أقول، فأردف:

- لكن زوجتك...

باهتمام سألته:

- ماذا بها؟

ابتسم وهو يقول:

- إنها تغار.

قلت متهكماً:

- تغار؟! لكني لن أتزوج من هذه العازفة.
- ليس بالضـــرورة أن تتزوج على زوجتك حتى تشـــعرها بالغيرة .. تكفي نظرة إعجاب لغيرها .. لتضـــرم النيران في قلبها .. وبخبرتي الطويلة في الحياة .. أقول لك: إياك أن تستغل الغيرة ضد زوجتك يا بني .. لأن نيران الغيرة غدارة .. لا تفتأ أن تشـــعلها فتحرقك أنت .. تذكر هذا الدرس جيداً طوال حياتك.

لاحظت أن القبطان هشام بن الأمين يمتلك بعض الصفات التي لا يمتلكها غيره. قوي البنية، والشخصية، سريع البديهة، قائد بالفطرة، محبوب بالفطرة، حكيم، بالإضافة إلى كونه يجيد المصارعة، ويجيد استخدام السيف أفضل من الجميع تقريباً ... لا يعيبه شيء، سوى شربه المطرد للنبيذ بأنواعه.

قالت له:

- أظنني تماديت في إبداء إعجابي بهذه الفتاة.

ضحك وقال:

- كل من في هذه القاعة تقريباً واجهوا نفس مشكلتك .. لكن القليلين فقط من تداركوها قبل أن تتفاقم.

ثم غير الموضوع فجأة لموضوع أهم إذ قال:

- كدت أنسى .. هناك سفينة غداً ستنطلق إلى اليمن .. إن أردت سأجعلك تستقلها أنت وزوجتك .. ومن هناك يمكنك أن تعود إلى بلدك كما أظن .. قابلني ليلاً في الحانة .. وسأخبرك بما يجب أن تفعل.

وسألته حين قابلته ليلاً:

- أحقاً يا سيدي لا تعرف مصر؟ أرى أنكم هنا تعيشون حياةً بدائية إلى حدٍ ما.
- منذ أكثر من ألفي عام .. ركب بعض التجار اليمنيين البحر متجهين إلى بلاد لم يسمع بها أحد من العرب قبلاً .. وسارت السفينة بهم ليالي وأيام طويلة .. وأمواج البحر تلاعبهم تارة .. وتلعب بهم أخرى .. وذات يوم لم تشرق شمسه .. ألتهم ضباب غامض سفينة التجار ..

فانعدمت الرؤية تماماً .. ولم يجسر البحارة على التوقف حتى ينقشع هذا الضـــباب .. لأن الزاد والماء كانا على وشـــك النفاذ .. لذا تابعوا التحرك على الرغم من اســـتحـالـة الرؤيـة .. وشـــقوا طريقهم عبر الضباب بنجاح ولله الحمد .. لكنهم كانوا قد ضلوا الطريق .. ووجدوا أنفسهم بالقرب من جزيرة لم تخطها قدم إنسانٍ قبلاً .. وكانت صالحة للحياة البشرية .. فبها شتى ألوان الفواكه والخضراوات .. بالإضافة إلى المياه الجوفية العذبة .. وهذا ما جعلهم يمكثون بها.

سألته:

- ألم يحاولوا العودة إلى اليمن مجدداً؟
- بالطبع حاولوا العودة .. لكن دون جدوى .. فإلى الآن لم ينجح أحد في الخروج من نطاق هذا الضـــباب .. بالطبع توجد بعض الجزر الأخرى غير صـــفصـــافة هنا .. وقد رحل بعض أســـلافنا إلى هذه الجزر .. وكوَّنوا ممـالـك أخرى هنـاك .. لكن اليوم هـذه الجزر في صراع ضد بعضها البعض.
- مهلاً يا سيدي .. ماذا تقصد بقولك هذا؟ لقد أخبرتني أن هناك سفينة ستنطلق إلى اليمن غداً .. فكيف تقول أن أحداً لم ينجح من الفرار من هذا النطاق؟!

تنهد القبطان وقال:

- حسناً .. سأخبرك الحقيقة .. لقد حاول الآلاف الخروج من نطاق هذا الضـــباب والعودة إلى الوطن .. لكن لم ينجحوا في ذلك بأي حال من الأحوال .. فـإمـا أن يواجهوا الضـــبـاب الكثيف .. وإمـا تكون هنـاك دوامة تبتلع من يقترب منها .. وإما ينتهوا على صخور حادة تحطمهم وسفينتهم.
- وتريدني أن أذهب في أحد هذه الرحلات؟ تريد التخلص مني؟

- كبير التجار اليمنيين – الذين أخبرتك عنهم منذ قليل – واسمه بركات .. رأى في منامه بعض الرؤى .. وجميعها تحققت .. مثلاً: رأى في منامه أنهم إن أرادوا البقاء أحياء .. فعليه أن....

وصمت القبطان، فألححت عليه أن يكمل فقال:

- فعليه أن يتزوج من تاجر شاب معهم يدعى سعد.

قلت مستنكراً، وشاعراً بالاشمئزاز:

- ما هذا القرف؟
- وحين استيقظ .. أمر بالتحقق من وجود شاب معهم يدعى سعد .. فجيء له بشاب صغير السن .. وسيم الملامح .. حينها طلب بركات أن يتحقق طبيب السفينة من جنس سعد .. فاعترف الأخير – حين علم أن أمره قد كشف – أنه ليس شاباً وليس اسمه سعد .. وإنما فتاة تدعى صفصافة، وهي متنكرة في زي رجل من أجل السماح لها بالتجارة – حيث لا يسمح بالتجارة إلا للرجال – وذلك من أجل إعالة أسرتها بعد أن توفى والدها وكان العائل الوحيد لهذه الأسرة .. حينها تزوجها بركات .. وأنجب منها على مدار عمره ثلاثاً وعشرين ولداً .. وتزوج منهم ثمانية عشر وأنجب منهم خمسة عشر .. وتزاوج الأبناء وتكاثروا .. وظل الحال هكذا حتى صارت الجزيرة مدينة مكتظة بالسكان.

قلت بذهول:

- هذه قصة عجيبة .. لكن يحضرني سؤال: إن كان أولاد بركات كلهم رجال .. فبمن تزوجوا؟ وكيف أنجبوا؟
- هنا يكمن العجب الحقيقي .. فقد كان قبطان السفينة اليمنية رجل سيء السمعة .. وكان يعشق النساء كثيراً .. وكان لا يسافر في رحلة

بحرية طويلة إلا ومعه إحدى جواريه الحسان .. حتى أن التجار قالوا أن هذا القبطان أصابه غضب من الله – سبحانه وتعالى – وبسببه ضلّوا طريقهم.

فقلت ساخراً:

- وبالطبع أنجب من جاريته الإناث!
- لا تسخر .. فهذا ما حدث حقاً .. لقد أنجب تسعة عشر بنتاً .. والأعجب أنه قبل أن نضل الطريق كان لا ينجب.
- لكن .. هذا كلام لا يصدقه عقل!

قال القبطان بشيء من الحدة:

- لكنها الحقيقة .. وكل من بالجزيرة يعلم هذه القصة.
- حسناً يا سيدي .. لنفترض أني صدقت هذا الكلام .. فما علاقة كل هذا بسفري غداً.
- قلت لك أن الزعيم بركات رأى في منامه رؤى كلها تحققت .. ومن ضمن الرؤى التي رآها أنه دخل في عراك مع نمر ضخم جداً له نابان طويلان جداً يبرزان من جانبي فكه العلوي .. وأن هذا النمر حمله في فمه وانطلق به إلى رجل طاعن في السن يجلس داخل كهف صغير .. ثم لفظه النمر أمام الحكيم واختفى .. فسأل بركات الحكيم:
- من أنت؟

فأخبره الرجل أنه حارس الجزيرة .. وأخبره أنه سيلد من الأولاد ثلاثة وعشرون رجلاً .. من بينهم رجل يدعى (صالح) .. سيكون من نسله بطل سيحكم صفصافة بالعدل بعد أن يحكمها سبعة حكام ظالمين .. وأن شيطاناً سيولد على هيئة إنسان في عصر هذا البطل .. سيحاول قتله شاب غريب كريم الأخلاق .. لا يعرف أحد من أين أتى .. يظهر فجأة في البحر هو وفتاة ليست

زوجته .. وإن عاش الشـيطان وأخفقت محاولة الغريب في قتله .. سـيهلك كل شـخص على الجزيرة .. وإن نجا هذا الغريب من الشـيطان .. فسيكون أول من يعبر البحر إذا نجح في الاختيار الصـحيح .. وإلا سيموت أبشع ميتة حدثت منذ نشأة الأرض.

قلت للقبطان:

- اختيار ماذا؟
- لا أدري .. لكن قبل أن يستيقظ جدنا الأول من نومه .. قال له الحكيم:
- أخبر الغريب أن أوعر الطرق هلاك .. وسـهلها ملئ بالأشـواك .. اعبر مثلث الرعب .. اعبر مثلث الرعب .. اعبر مثلث الرعب...

واستيقظ جدنا وهذه العبارة تتردد في ذهنه.

أخذت أتساءل:

- اعبر مثلث الرعب! ماذا يعني؟
- لا أدري .. وكانت هذه نبوءة بركات.
- هذه قصة لها العجب .. ويصعب تصديقها.

فقال لي القبطان:

- هل سارة زوجتك؟

احمر وجهي خجلاً، ونظرت نحو الأرض وأنا أجيب في تخاذل:

- لا.
- إذاً .. فالنبوءة حقيقية.

واستطرد قائلاً بحدة:

- لو كانت الظروف غير الظروف .. وعلمت أن شـــاباً يعيش مع فتاة ليست زوجته وليست من محارمه .. لكنت أمرت بضرب عنقه فوراً .. لكن الحكيم قال أنك كريم الأخلاق .. لم تمس الفتاة بسوء.
- هذا كثير على التصـديق .. حتى ولو صـدقت ما تقول .. فمن أدراك أنني المقصود؟

صاح بحدة:

- كل الدلائل تشير إلى أنك أنت المقصود .. رجل من صلب صالح بن بركات هو أنا.
- كيف علمت أنك أنت هذا البطل؟
- لقد قتل ماجد الحاكم الظالم سعيد بن عامر .. وتولى مكانه.
- لقد قتل حاكماً ظالماً كما تقول .. فماذا في ذلك؟

فصعقني بقوله:

- لقد كان هذا الحاكم هو والد ماجد.
- هل قتل والده؟!!
- نعم .. وقتل أخاه الأكبر أيضـاً .. لأنه أراد حكم صـفصـافة .. وحين صـــار حاكماً بدأ يذبح في أهلها كالمجنون .. وخرجت عليه .. واستطعت نزعه عن العرش .. وسجنته .. وحاولت أكثر من مرة أن أقتله .. لكن القدر أبَى إلا أن تقتله أنت .. أتعلم أمراً .. لقد كان ماجد سابع الحكام المستبدين .. وأكثرهم وحشية وقسوة.
- أرجوك سيدي .. إن عقلي لا يستوعب كل هذا.

صاح بحدة:

- سواءً صدقت أم لم تصدق .. الرحلة ستنطلق فجر الغد.

فثارت ثائرتي، وصحت بمنتهى القوة:

- كفى .. كفى .. لم أعد أتحمل .. لقد سقطنا – أنا وسارة – من الطائرة .. وذهبنا إلى جزيرة قاتلنا فيها الببر سيفي الأنياب .. وكدنا نصير فريسة للأسود .. وركبنا الماموث .. وعالجني رجال ما قبل التاريخ من الشلل .. وهربنا من وحش الجبل .. وصنعنا قارباً من أعواد الخيزران .. ووجدنا جزيرة عربية ضائعة في عرض المحيط .. وقتلت شيطاناً متجسداً في شكل إنسان .. والآن تريد مني أن أخرج في رحلة تقول النبوءة أنني قد أموت بها أبشع ميتة في التاريخ؟! آسف .. لن يحدث هذا أبداً.

كان كل من في الحانة – ولم يكونوا كثر – ينظرون إلينا وإلى هذه المناقشة الحادة، وهبَّ القبطان واقفاً وقال:

- لم يجسر أحد من قبل على أن يخاطبني بهذه الطريقة الجافة .. لكني أدرك ظروفك جيداً .. والحالة التي تمر بها .. وعلى الرغم من أني لم أفهم معظم ما قلته .. لكن لا بأس .. القرار قرارك .. اذهب أو ابقى هنا .. أنت حر .. أنا لا ألقي بأحد إلى التهلكة .. وداعاً.

وتركني وانصرف. كانت نبرته تدل على حزنه الشديد مني، واقترب أحد الرجال – وكان يجلس بالقرب منا – وقال لي:

- لا أعلم ما الذي دار بينك وبين الزعيم .. ولا أعلم من أنت .. لكنك أحمق.
- عفواً؟
- نعم، أحمق .. الشخص الذي لا يستمع لرأي الزعيم هشام هو رجل أحمق .. إنه قائدنا .. وحامينا .. وحاكمنا .. وحكيمنا.

فسألت هذا الرجل:

- هل تعرف عن قصة الغريب الذي ينقذ البلدة؟
- نعم .. هذا زمانه .. كل من في الجزيرة يعلم ذلك.

وأخبرني قصـــته، وقال مثل الذي قاله القبطان تماماً، لكنه لم يعرف أنني هذا الغريب، وأن ماجد هو الشيطان الإنسي.

وهكذا تأكدت من صـــدق ما قاله القبطان، وكنت أعلم انه صـــادق من البداية، فذهبت إليه، واعتذرت منه، وأخبرته أني موافق على الرحيل غداً، وتفاجأت أنه سامحني على الفور، وسألني:

- ماذا كنت تقصـــد بالطائرة .. والماموث .. والببر ســـيفي الأنياب .. ورجال ما قبل التاريخ؟! ما هذه المصطلحات الغريبة؟!

ضـحكت، وشرعت أقص عليه حكايتي، من البداية، وحتى أسرونا، وأشرح له ما هي الطائرة، والماموث، وأخبرته أن الببر الســـيفي هو المخلوق الذي حمل بركات في فمه في تلك الرؤيا. ورغم أني حاولت أن أختصـــر قدر المســـتطاع، إلا أن الحديث استمر حتى أوشك النهار على البزوغ. فقال القبطان:

- هذه قصة عجيبة.

ثم ابتسم وهو يستطرد ساخراً:

- وكنت لا تصدق ما أخبرتك به!
- معك حق .. إن ما مررت به الفترة الماضـــية .. يجعلني لا أكذِّب أي شيء بعد الآن .. مهما كان غريباً.

نظر القبطان إلى السماء وقال:

- بقي قليل جداً من الوقت على أن تشرق الشمس .. يجب أن تنم قليلاً .. ستحتاج غداً أن تكون بكامل وعيك.
- لكني لا أشعر بالنعاس.
- قلت لك غداً سيكون يوماً عصيباً .. وستحتاج كامل انتباهك ووعيك.
- أوامرك أيها القبطا.... أقصد أيها الزعيم .. لكن لديَّ سؤال أخير.
- سل ما شئت.
- فهمت أنك لم تخبر أحداً أنني الغريب .. وأن ماجد هو الشيطان الذي ورد في النبوءة .. فكيف أقنعت الطاقم الذي سيسافر معي غداً على ظهر السفينة بهذه الرحلة؟
- قلت أول ما رأيتك أنك ذكيٌ فطن .. حسناً سأخبرك: الطاقم الذي سيذهب معكما – أنت وسارة – غداً هم رجالي .. هم بالطبع يعلمون القصة .. والسفينة التي ستبحر بكما هي سفينتي .. سيدة المحيط .. وسيكون سلام هو مساعدك في هذه الرحلة .. هو يدرك جيداً أنك أنت قبطان السفينة .. وأن القرار الأول والأخير قرارك أنت .. هل استراح عقلك الآن؟

أومأت برسي، ثم قلت:

- كم وددت لو أنك من قادنا في هذه الرحلة.

ابتسم وهو يربِّت على كتفي، وقال:

- سأفتقدك كثيراً أيها الفتى .. هيا إلى النوم .. الآن.

* * *

(٢١) رحلة العودة

في الصباح، ذهبت إلى الشاطئ، وبصحبتي سارة، وكانت سيدة المحيط هناك بالفعل، ورأيت سلام يأمر البحارة بنقل الأمتعة والزاد إلى السفينة، وما أن رآنا حتى حيانا، وأشار إلينا بالصعود، ثم بعد فترة وجيزة رأيت رجلاً قادماً من بعيد، يمشي وحده في رزانة وهدوء.

ما أن رأيته حتى تهللت أساريري، ونزلت إلى الشاطئ مسرعاً، قلت له بلهفة:

- أهذا أنت حقاً يا سيدي؟

ابتسم وقال:

- لم أستطع أن أتركك ترحل دون أن أودعك بنفسي.

وكم كانت مشاعري متأججة حينها حين سمعت هذا الكلام، وبحركة لا إرادية، وجدتني ارتمي بين أحضانه كما يرتمي الطفل بين أحضان والده، فضمني ضمة قوية، ثم ربَّت على كتفي، ونظر في عينيَّ قائلاً:

- اسمع يا عادل .. يعلم الله أنني أحببتك كابن لي .. وربما أكثر .. لذا أريد أن أعطيك ثلاث نصائح ستنفعك إذا نجوت من هذه الرحلة الخطرة.
- قل يا أبي .. عفواً .. أقصد يا سيدي.
- لا بأس .. لقد أحببت سماعها منك .. النصيحة الأولى يا بني: ليكن لك هدفٌ تسعى لتحقيقه.

- بصراحة لديَّ أهداف كثيرة.
- لا .. يكفي هدف واحد فقط .. وحذار أن تأبه لكلام الناس حين يحبطوك .. فذاك هو عملهم الوحيد .. الكلام فيما لا يعنيهم .. حين يقولون لك أنت لا تصلح .. فاثبت لهم أنهم مخطئون. ولكن يجب أن يتوافر في الهدف الذي تسعى إليه عدة شروط، وهي: أن يكون كبيراً جداً... أن تؤمن أنك تستطيع تحقيقه... أن تكون ميالاً إليه.
وإن لم تتوافر هذه الشروط في هدفك .. فإياك أن تسعى إليه .. وابحث عن هدف آخر .. فذاك هو السبيل الوحيد لتكون عظيماً .. هل استوعبت ذلك؟
- نعم يا سيدي.
- جيد .. النصيحة الثانية: أن تؤمن بالقدرات التي وهبك الله – تعالى – إياها .. حتى لو لم تعلم ما هي هذه القدرات .. يكفي أن تعلم أن الإنسان هو أرقى المخلوقات جميعاً .. وبداخله قدرات عظيمة لو آمن بها لسخر الدنيا كلها لتحقيق أهدافه وأحلامه .. مهما كانت صعبة .. ومهما بدت مستحيلة .. (إن أردت صنع المعجزات، فآمن بقدراتك اللامحدودة).
- أنت لا تقول كلمات .. بل تقول درر يا سيدي

ولم أكن أنافقه أو أجامله .. إنما هي الحقيقة التي شعرت بها.

قال:

- النصيحة الثالثة: يجب أن تحذف من قاموس حياتك كلمتين ملعونتين وهما: (لا أستطيع – ومستحيل).. من يقلهما أو يؤمن بهما .. لا يمكن أن يكون عظيماً، أو أن يحقق أهدافه في يومٍ من الأيام.
آخر نصيحة يا بني: الوقت .. ثم الوقت .. ثم الوقت .. إياك وإضاعة لحظة واحدة من حياتك دون أن تستفيد منها أمثل استفادة.

قلت له:

- عندنا حكمة تقول: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

أخذ يتأمل في هذه المقولة للحظات، ثم قال في انجذاب:

- يا الله .. ما أجملها من حكمة .. إنها أجمل وأهم ما سمعته طوال حياتي.

قلت بشيء من التعجب:

- إننا في وطننا كثيراً ما نسمعها ونرددها .. لكن لا نكون مبهورين بها كما أنت الآن.
- لأنكم حمقى .. فلو وعيتم ما بهذه الحكمة من خير لسجلتموها بماء الذهب فوق أبواب دوركم .. ولو علمتموها أبنائكم لما احتجتم أن تعلموهم أي شيء آخر طوال حياتهم.
- بصراحة .. أنت محق في كل كلمة قلتها.

في تلك اللحظة، نظرت سارة من فوق السفينة هاتفةً:

- هيا يا عادل .. سوف نبحر الآن .. مرحباً يا قبطان.

فحياها القبطان، وقال لي:

- انتبه جيداً لها يا بني .. سارة فتاة رائعة .. و قد تكون أعظم هبة وهبت إياها .. لا تضيعها من يديك.
- ماذا تعني يا سيدي؟
- ستفهم ما أعنيه قريباً .. الآن عليك أن تذهب .. هيا.

ألقيت بنفسي بين أحضان الشخص الذي أحببته كوالدي تماماً، وقلت:

- إلى اللقاء يا قبطان.
- بل قل: الوداع يا قبطان .. فلا أظن أننا سنتقابل مجدداً.
- لن أنساك أبداً يا سيدي.

فربَّت على كلا كتفيَّ وقال:

- وأنا لن أنساك يا عادل .. سأتذكرك دائماً بالخير .. يا بُني.

وهتفت سارة:

- أسرع يا عادل.

فركضت نحو السفينة بسرعة، ووقفت وبجانبي سارة، بعد أن سارت السفينة، نحو الجانب المطل على الشاطئ، ولوَّحنا للقبطان:

- وداعاً.
- وداعاً يا أبنائي .. كونوا حذرين.

وقبل أن يختفي القبطان عن ناظرينا، لاحظت أنه يمسح عينيه بمنديله، فتساءلت في نفسي: أحقاً كان القبطان يبكي؟!

وقالت سارة فجأة:

- فيمَ كنتما تتحدثان؟
- كان ينصحني...

ونظرت نحو الجزيرة، التي بدت من بعيد بحجم علبة الثقاب، وأردفت:

- ينصحني كما ينصح الوالد ولده .. يا له من رجل عظيم.

فقالت:

- بالتأكيد .. لولا أنه....
- لولا ماذا؟ تكلمي.
- أقصد شربه المفرط للخمر.
- هذا ليس عيباً عندهم .. كما وأنه ليس محرماً في دينهم على ما يبدوا.
- أليسوا مسلمين؟
- ولا أظن أنهم نصـــارى كذلك .. لقد كان أســلافهم على هذه الجزيرة قبل بعثة عيسى (عليه السلام).

بعد سبعة أيام، وبينما نحن في حديثنا عن صفصـافة وسكانها، أقبل علينا سلام وقال:

- عادل .. هناك شيء عليَّ أن أريك إياه.
- ما هو؟
- تعال معي.

وصعدنا فوق برج المراقبة .. وأعطاني منظاراً معظماً قائلاً:

- انظر إلى اليمين.

نظرت فرأيت دوامة كبيرة على مد البصر. فقلت له:

- سـوف نسـير إلى الأمام مباشـرة .. لأننا لو ذهبنا يميناً .. فلا أمل في النجاة أبداً.

فقال لي:

- هلّا نظرت إلى الأمام قبل أن تتخذ مثل هذا القرار.

فنظرت مد بصري، فإذ بضباب كثيف يغطي هذه البقعة من الماء، قلت له:

- هل هذا هو الضباب الذي ضاع التجار اليمنيين فيه قبل ألفي عام؟
- أجل هو.
- لو عبرنا هذا الضباب بأمان لربما عدنا من الطريق الذي قدموا منه.
- عليَّ أن أخبرك أمراً هاماً...

وقبل أن يقول أي شيء، كنت قد نظرت ناحية اليسار مد البصر، فإذ بي أرى المياه صافية نقية، ليس بها أي خطر. وفكرت: هل يمكن أن يكون هذا هو الاختبار الذي أخبرت النبوءة به؟

في هذه اللحظة قال لي سلام:

- ما رأيك في هذا الاقتراح؟
- أي اقتراح؟
- الذي أخبرتك به للتو.

اعتذرت له:

- آسف .. لم أسمعك جيداً يا سلام .. أخبرني من جديد .. ما الذي اقترحته؟
- أقول لك بدلاً من المغامرة التي سنهلك فيها لا محالة إذا سرنا عبر الضباب .. ما رأيك في أن نسير من هذا الطريق الغربي – وأشار نحو اليسار – إنه يبدو آمنا.
- مهلاً، مهلاً .. ما الذي يجعلك متأكداً أننا سنهلك إن عبرنا من الضباب؟
- عدة أشخاص حاولوا العودة من حيث أتى أجدادنا الأوائل .. من الضباب .. غير أن سفنهم ما لبثت أن وجدت بعد ذلك في عرض البحر .. وجدت على حالتها الطبيعية .. ليس بها خدش واحد .. وليس

بها أيضاً شخص واحد .. كل مرة كان يختفي طاقم السفينة بالكامل. ومرة عادت إلى الجزيرة إحدى تلك السفن .. ولم يكن بها سوى شخص واحد .. كان اسمه (برقوق).. هذا الرجل في الأصل رجل سمين .. ذو جسد ضخم .. لكنه حين عاد .. طار كل هذا الوزن الزائد وأكثر .. حتى أنه صار جلداً على عظم .. وكان شعره أبيضاً عن بكرة أبيه .. وحين سألناه عما حدث؟ وجدنا أنه فقد عقله تماماً في تلك الرحلة. ولم يمكث في منزله غير أيام ثلاث .. ثم اختفى تماماً.

- إذاً طريق الضباب ليس هو الطريق الصحيح كما تقول؟
- إن أردت رأيي .. نعم .. كما أن هناك سفينة أخبرنا قبطانها أنه عقد العزم على سلك الطريق الآمن .. ومن يومها لم يتم العثور على السفينة .. ربما غرقت .. وربما خرجت من هذه الجزيرة.
- إذاً ما العمل الآن؟ هل ترى أن نسلك هذا الطريق الآمن؟

تراجع للخلف قائلاً:

- لا أحد يعرف .. كما أني لا أنصحك أن تطلب رأي أحد .. يجب أن تختار وحدك .. سترسو السفينة هنا دون حراك إلى أن تقرر.

وتركني وحدي لأفكر.

وأنشأت أفكر في حل لهذه الورطة، لا أريد الاعتماد على الحظ في اختياري، ورحت أتذكر النبوءة التي قصها عليَّ القبطان .. علَّ فيها ما يرشدني للطريق الصحيح .. وتذكرت النقطة التي قال فيها الحكيم لبركات: أخبر الغريب أن أوعر الطرق هلاك .. وسهلها ملئ بالأشواك .. اعبر مثلث الرعب .. اعبر مثلث الرعب .. اعبر مثلث الرعب...

ثم أخذت أفكر: اعبر مثلث الرعب .. ماذا يعني؟ هل يقصد بمثلث الرعب الطرق الثلاث؟ ربما .. لا حل آخر غير هذا .. لكن كيف سأعبر من الطرق الثلاثة جملة واحدة .. يا رب .. أعني على الفهم.

فجأة التمعت في ذهني فكرة ما، فكرة عجيبة، لكن ربما كان الحل في ثنياتها. ورحت أنظر – في المنظار – نحو الطرق الثلاثة من جديد، وأفكر في شـــيء معين، وهذه المرة أظنني وجدت الحل.

هتفت بعزم صوتي:

- سلام .. سلام.

فأقبل كل من في الســـفينة يتقدمهم ســـلام، وكانوا جميعاً بانتظار معرفة ماذا قررت، وسألني سلام عنا أريد، فقلت له:

- أظنني وجدت الحل.
- حقا؟ ما هو؟

* * *

(٢٢) قرار مصيري

- ماذا؟! سنعبر من الضباب؟!

صاح سلام في ذهول، وأردف:

- بعد كل ما أخبرتك عنه؟! موكد أنك مجنون.

وسـرت جلبة فوق السـفينة، ومن نظراتهم، علمت أن الطاقم كله يرفض هذا القرار، فقلت موضحاً:

- ألا تذكرون الرؤية التي رأى فيها جدكم الأول الحكيم؟

أجاب سلام بالنيابة عن البحارة:

- بلى .. نذكرها جميعاً.
- إذاً تذكرون أن الحكيم قال له أن يخبر الغريب أن يعبر مثلث الرعب.
- وما علاقة هذا بما تقول؟

سلام هو من سأل هذا السؤال، فأشرت أليه أن تعال، وأعطيته المنظار قائلاً:

- انظر إلى الضباب.
- ماذا به.
- أتعلم أنـه في عـالمي نطلق على هـذه المنطقـة الضـبـابيـة .. مثلـث برمودا؟

شهقت سارة فزعاً، فنظر إليها الجميع، ثم عاود سلام النظر تجاهي متسائلاً:

- مثلث برمودا؟! وما هو هذا؟

- إنها منطقة جغرافية على شكل مثلث متساوي الأضلاع .. تقع في غرب المحيط الأطلسي .. وقد حدثت عدة أمور غريبة في هذه المنطقة على عبر تاريخها.
- وهل تتوقع أن هذا هو مثلث برمودا الذي تقول عنه؟
- إنه هو بالتأكيد .. ونحن نطلق عليه أحياناً اسم (مثلث الشيطان).. وهو أجدر مكان في العالم اجمع يمكن أن تطلق عليه مثلث الرعب.
- إذاً أنت تعتقد أن الحكيم – في الرؤية – كان ينصحك بأن تعبر من هذا الضباب؟
- بالتأكيد.

بدا عليه شيء الاقتناع فقال:

- إن كان هذا ما تريده...

ثم التفت إلى البحارة قائلاً:

- سمعتم القبطان عادل .. هيا .. إلى مثلث الشيطان.

توقعت أن أراهم يهتفون ويصيحون بحماس، لكنهم هذه المرة كانوا خائفين، خائفين بحق. ولما رأى سلام هذا الخوف في أعينهم، أخذ يحمسهم ويحفز مشاعرهم ببعض كلمات الحماس دون جدوى. فقلت لهم:

- اسمعوني يا رجال .. من أراد منكم الرجوع .. أعطيناه زورقاً من زوارق النجاة – الملحقة بالسفينة – يعود به إلى صفصافة.

فصاح أحدهم:

- وإن عدنا .. ماذا سنقول لأبي رافع؟ أنقول له أن رجال طاقمك الشجاع خائفون؟

وقال آخر متابعاً كلام زميله:

- إنني أفضل الموت على أن أقف مثل هذا الموقف أمام القبطان هشام.

وقال ثالث:

- من الجيد أنه ليس بيننا الآن .. وإلا كنا في موقف لا نحسد عليه أبداً.

وقال رابع:

- يا للعار .. أسياد المحيط خائفون من الضباب! والله هذا لا يكون.

وبدأت الهمة والحماسة تدب فيهم شيئاً فشيئاً، حتى رأيتهم وحوشاً تواقة للمغامرة، حتى ولو كان الثمن هو حياتهم.

فرفعت يدي في الهواء وصحت:

- نحن أسياد المحيط.

فرددوا جميعاً خلفي:

- نحن أسياد المحيط.

وهنا هتف سلام مجدداً بمنتهى الحماس:

- إلى مثلث الشيطان.

فصاحوا جميعاً هذه المرة:

- هاااااااااي.

وقلت في نفسي وأنا أنظر للرجال المتحمسين وأبتسم: حتى وأنت بعيد عنا، تكفي سيرتك يا أبا رافع لتحفز همة الرجال. يا لك من رجل!

* * *

(٢٢) مثلث الرعب

انتصفت الشمس في كبد السماء، وتوهجت أكثر جاعلة أجسادنا تتصبب عرقاً، حين قالت سارة:

- أأنت متأكد أن هذا الضباب هو حقاً مثلث برمودا؟
- إنه يقع في غرب المحيط الأطلسي .. ولقد سقطنا من الطائرة في الأطلسي على كل حال.

وهنا أقبل أحد البحارة – ويدعى عامر – وخاطبني قائلاً:

- سيدي القبطان .. نحن على وشك الدخول في الضباب.

خرجت من القمرة مسرعاً، بعد أن أمرت سارة بعدم الخروج، ووقفت فوق مقدمة السفينة أنظر لهذا المنظر الذي لا يتسنى لي رؤيته كل يوم، وسرت في جسدي رعشة غريبة في اللحظة التي بدأ الضباب فيها يلتهم السفينة.

ودخلنا المنطقة المحظورة...

كان الضباب يحيط بنا من كل النواحي، محدثاً جواً من الرعب الخالص النقي، ذلك الرعب الذي نشعر به إثر مشاهدة أحد الأفلام الكابوسية العالمية، التي تسبب لنا الأرق شهراً كاملاً.

كنت أشعر بمشاعر متضاربة في هذه اللحظة، فمن ناحية أحس أني أحسنت الاختيار، وسأكون أول من يعبر ثالوث الضباب هذا، ومن ناحية أخرى يرتجف قلبي لوجودي في هذا المثلث المخيف، واسع الشهرة، ومن ناحية ثالثة أتساءل: ماذا لو أن الاختبار الحقيقي لم يبدأ بعد؟

ماذا لو داهمنا الخطر، وأن هذه النبوءة كانت أضغاث أحلام لا أكثر؟

ماذا لو ارتطمنا – في ظل انعدام الرؤية – ببعض الصخور الحادة؟

ما الذي قد نواجهه داخل هذا المثلث الذي لم يدخله أحد ويخرج منه قط؟

وراحت الأفكار تتدافع في رأسي، بسرعة جنونية، حتى داهمني صداع رهيب، فعدت إلى القمرة، أستريح قليلاً، وهتفت سارة:

- ماذا بك يا عادل؟
- رأسي يكاد ينفجر .. صداع رهيب هاجمني بغتة.

مسحت على ذراعي قائلة:

- اهدأ ولا داعي لكل هذا التوتر .. أنت تعلم أن توترك هذا لن يقدم أو يؤخر .. إنما يصيبك بالصداع والهم وفقط.

كنت أعلم أنها محقة .. توتري هذا لن يجدي نفعاً.

وفجأة... سمعت صوت صراخ يصدر من البحارة، فخرجت مسرعاً لأتبين ما حدث، وإذ بي أرى منظراً مفزعاً بحق، فعلى ظهر السفينة، ظهر كائن غريب الشكل، بشع المنظر. كان في حجم الإنسان العادي، أو أطول قليلاً، له يدان وقدمان، لكن جسده العاري ليس عليه جلد. اللحم باد والأعصاب أيضاً والعظام في بعض المناطق يمكن رؤيتها بوضوح تحت اللحم.

كان يبدو كإنسانٍ سُلخ حياً.

صحت متسائلاً:

- من أين أتى هذا المخلوق الغريب؟

أجاب أحد البحارة:

- لا ندري يا سيدي .. لقد لاحظنا شيئاً غريباً متكوراً على نفسه في يسار السفينة .. فذهب عامر ليتبين ما هو هذا .. فإذ به هذا المخلوق.

وهتف أحد البحارة بارتياع:

- هذه المنطقة ملعونة .. نحن هالكون لا محالة.

فصاح سلام بغضب:

- اصمت عليك اللعنة وإلا قطعت رقبتك .. وألقيت بجسدك القذر عن السفينة.

أما أنا، فقد اقتربت من هذا الكائن، وسألته متظاهراً بأني لست خائفاً:

- من أنت؟ وماذا تكون؟

اقترب مني، ومد يده نحو وجهي يريد مساسه، فشعرت بالتقزز، وسرت رعشة قوية في جسدي، وأما أن لامس وجهي، حتى شعرت بأني سأتقيأ على الفور. لكني لم أفعل. وسار بيده على وجهي متجهاً لأسفل، إلى أن وصل لرقبتي.

وهنا دفع الفضول سارة إلى الخروج من القمرة، لترى ما يحدث، وإذ رأت هذا الشيء البشع يمسكني من رقبتي، صرخت بأعلى صوتها، فأطبق على رقبتي بقوة بالغة إثر هذه الصرخة، حتى كدت أن أختنق، ثم نظر إليها، وصاح فتناثر الرذاذ من فمه على الأرضية الخشبية المكونة لسطح السفينة، فتآكل الجزء الذي سقط علية هذا الرذاذ. ثم إنه تركني واتجه نحوها بسرعة بالغة.

إنه قاتلها لا محالة لو وصل إليها، لكن سلام، أسرع وانقض بسيفه على هذا المخلوق، بمنتهى الشجاعة، فأطاح برقبته.

ووقع هذا الشيء البشع على أرضية السفينة صريعاً.

تنهدت في ارتياح، واتجهت نحو سارة وقلت لها بلهجة المعاتب:

- ما الذي أخرجك من القمرة؟ ألم آمرك بالمكوث هناك؟
- لم أستطع .. لقد شعرت بفضول شديد لمعرفة ما يحدث على ظهر السفينة.
- اسمعيني يا سارة .. قد نكون الآن في خطر حقيقي .. وأسلم شيء أن تطيعي الأوامر طاعةً عمياء.
- لن أجادلك فيما تقول .. فأنا أفهم مقصدك تماماً .. وأعلم أنك محق ولكن....

لم تكمل ما اعتزمت قوله، لأننا في هذه اللحظة سمعنا صوت صراخٍ أنثوي يصم الآذان .. صراخ متبوع ببكاء .. بكاء يدل على أن صاحبه يتألم .. يتألم بشدة .. كان كصوت أم قد مات ولدها.

- من أين يصدر هذا الصوت؟

سألَت سارة، فأجاب سلام:

- إنه لا يصدر من السفينة .. إنه قادم من مكان ما ... من الضباب.

وما لبثنا أن رأينا خيطاً من الضباب يزحف داخل السفينة، صحت بصوتٍ عالٍ:

- ما هذا؟

لم أحصل على إجابة، فلا أحد يمتلك واحدة.

ظل الضباب يزحف ببطيء على ظهر السفينة، إلى أن وصل إلى جثمان الكائن البشع – الذي قطع سلام رقبته – ثم انسحب الضباب حاملاً معه الجثة ورأسها.

كل شخص فسر هذه الظاهرة الغامضة كما سولت له نفسه، وكل تفسير كان كفيلاً بالتهام قلب صاحبه من الرعب، أما تفسيري أنا لم حدث، فلم يضمر في قلبي سوى شعور بالفزع، ليس فزعاً مما حدث، إنما هو فزع مما هو قادم.

- تُرى .. ماذا تخبئ لنا الأيام القادمة؟

انتزعتني سارة من شرودي بهذا السؤال، الذي ألقته عليَّ، وأنا أجلس معها في القمرة، فأجبتها مطمئناً إياها:

- لا تقلقي .. سيكون كل شيء (بإذن الله) على ما يرام.

لكن عدم اقتناعي بما قلت جعلني لم أفلح في إقناعها.

لكنها قالت:

- لست أنا من يجب أن تطمئنه .. يجب أن تعلم أن طاقم السفينة هم أيضاً يشعرون بالخوف .. يخافون من القادم.

قلت لها بخفوت حتى لا يسمعنا ثالث:

- الخوف من المجهول يا سارة هو أقوى أنواع المخاوف.

وبينما نحن في حديثنا، إذ ارتجت السـفينة بعنف، واندفع أحد البحارة مسـرعاً داخل القمرة والدماء تنزف من راسه، وصاح في فزع بيِّن:

- سيدي .. لقد فتح الجحيم أبوابه .. إننا هالكون...

* * *

(٢٤) الجحيم

خرجت إلى سطح السفينة مسرعاً، فوجدت ما لم يكن بإمكاني – مهما حاولت – أن أتوقعه.

فقد أظلمت السماء، وتناثرت الدماء في كل مكان، ليست دماء البحارة، إنما دماء تسقط من السماء أمطاراً غزيرة، البحارة يصرخون من الألم، أجسادهم تحترق ببطيء.

ماذا يحدث لهم؟

كاد هذا السؤال يفقدني صوابي، في اللحظة التي سقطت فيها قطرة من هذه الدماء المتساقطة على ذراعي، صرخت صرخة عالية من شدة الألم، فقد أحرقت تلك القطرة المنطقة التي نزلت عليها.

ورآني أحد البحارة، وهو يبحث عن مكان ليختبئ فيه، فصاع بهلع:

- السماء تمطر دماً أيها القبطان .. تمطر دماً.

صحت في الجميع:

- ليحتمي كل واحد منكم من هذا المطر الدامي.

كانوا يحاولون الاختباء بالفعل، منهم من نجح في الاختباء، ومنهم من لقي حتفه.

وبعد دقائق، توقف المطر. وعادت الأجواء هادئة، غامضة، ولما أطمأن قلبي بتوقف المطر تماماً، خرجت إلى ظهر السفينة، أعاين الأضرار.

وجدت سلام يجثوا على ركبته أمام جثة أحد البحارة، ولما رآني قال بأسى:

- عشـــرة من الرجـال لقوا حتفهم .. واثنين آخرين أقرب للموت من الحياة .. والباقون مصابون بحروق متفرقة من أجسادهم.

وحاول النهوض واقفاً فسقط أرضاً، فصحت به:

- سلام .. ماذا بك يا أخي؟

وجدته والدمع يجري على وجنتيه في صمت.

- تبكي يا سلام؟
- ليتنا ما قمنا بهذه الرحلة المشؤومة .. ما ذنب هؤلاء المساكين الذين لقوا حتفهم؟

ربَّتُّ على كتفه في إشفاق، وهممت بقول شيء ما، لكن صراخاً حاداً صدر من كل اتجاه حول السفينة، منعني من ذلك.

كان يختلف كثيراً عن الصراخ الأول، فهذه المرة، لم يكن يشبه نواح امرأة، بل كانت صرخات عذاب مئات، بل آلاف الأشخاص. رجال ونساء، كبار وصغار. كان الصوت وحده يعذبنا عذاباً لا يتحمله بشر.

كنت أضـــع يداي على أذناي في محاولات بائســـة لمنع هذه الأصـــوات من الوصول إليهما، وحاولت مد بصري داخل هذا الضباب الكثيف الذي يحفنا من كل جانب، وإذ بي أســتطيع إبصــار شــيء في داخله. ما رأيته كان عبارة عن ظلال .. المئات من الظلال لمخلوقات تشبه في تكوينها البشر.

كانت هناك أيضاً أصوات تدل على وجود نار مستعرة. وخطر في عقلي سؤال ما زلت أندم عليه حتى الآن...

هل يمكن أن يكون مثلث برمودا هو بوابة تصل الجحيم بالأرض؟

بالطبع أنت – عزيزي القارئ – تقول الآن: ما هذا السؤال الساذج؟

لكنك إن كنت معنا في هذه اللحظة، وعانيت مما عانينا، لعلمت أن هذا الســؤال قد يكون منطقياً تماماً، فلا يوجد تفسير آخر غير هذا.

وكنت أصرخ وأصيح في البحارة:

- لا يتحرك أحد منكم من مكانه .. لا تقتربوا من الضباب .. ومن سيخالف هذا الأمر .. فإنني أقسم على اقتلاع رقبته.

لكن لا يبدو أنهم سمعوني، كلٌ الآن مشغول بنفسه، كيف السبيل إلى النجاة؟ سؤال يحير كل بحار على ظهر السفينة. لكن الصوت كما أتى فجأة اختفى فجأة. وران الصمت من جديد، حتى إنك إن ألقيت بإبرة فوق سطح السفينة .. لسمعت صوتها رغم ضآلتها.

تنهدت في ارتياح لأن هذا الكابوس قد زال – ولو مؤقتاً. لكني لم أكن أعلم أن هذا الصمت هو بداية الكابوس، لا نهايته.

صاح سلام:

- هل أصيب أحد بأذى؟

الرجال جميعاً كانوا بخير. وتذكرت سارة، فأسرعت إلى القمرة، ورأيتها واقعة على الأرض مغشياً عليها. أسرعت نحوها وحاولت ان أفيقها، وأقبل سلام، وساعدني في نقلها إلى الأريكة الموجودة في زاوية في القمرة.

- لا تقلق يا سيدي .. ستكون بخير.

سألته وأنا أكاد أنهار:

- ماذا أصابها يا سلام؟
- مؤكد أنها لم تتحمل سماع هذه الصرخات المعذبة.

فأمرته أن يخرج إلى البحارة، ويطمئن عليهم، في حين سأظل مع سارة حتى تفيق.

وقبل أن يخرج، سمعنا صوت أحد البحارة وهو يصرخ، قبل أن يختفي الصوت تماماً.

فخرجنا إلى ظهر السفينة بسرعة، فأوقفت أحد الرجال، وقد كان يركض، وسألته:

- ماذا حدث؟

فقال بهلع وهو يدفع يدي عنه:

- دعني وشأني.

وانطلق يبحث عن مكان يختبئ فيه.

كنت أنا وسلام وحدنا تماماً على ظهر السفينة، بعد أن اختبئ الجميع.

فجأة دفعني سلام أرضاً بقوة، وهو يقول:

- احترس.

نظرت فإذ بي أرى حبلاً أخضر اللون يمتد من الضباب، كاد يلتف حولي، ويسحبني نحو الضباب، لولا أن سلام لاحظه ودفعني بعيداً عنه. وعاد هذا الحبل من حيث أتى خالي الوفاض.

ومن خلف سلام، أتى حبل آخر، والتف حول رقبته وشرع يسحبه بسرعة، لكني أخرجت سيفي، ووثبت فوق هذا الحبل، قاطعاً إياه من منتصفه. فسمعت صرخة ألم تأتي من المجهول في اللحظة التي قطعت فيها هذا الحبل.

وبدأت تلك الحبال النباتية تهاجمنا من كل اتجاه، بضراوة وشراسة. ونحن لا نكاد نستطيع ردعها. والبحارة كلٌ في مخبأه، يشعر بالذعر والهلع.

وسمعنا فجأة صوت تحطم بعض الأخشاب بعنف، تلاه مباشرة صراخ أنثوي مألوف جداً لي.

- سارة...

صحت بها وأنا أندفع نحو جانب السفينة الذي يصدر منه ناحيته هذا الصوت، فرأيت القمرة قد تحطم جانبها من هذا الاتجاه، وبعض الحبال تلتف حول رقبة سارة وحول خصرها وحول قدميها. وسارة تتشبث بعمود خشبي قائم في منتصف القمرة.

اندفعت نحو هذه الحبال، أبغي تخليص سارة، لكن حبلاً التف حول ساعدي الأيسر، قصعته بسيفي، فاندفعت الحبال من كل جانب تلتف بكثرة حول ساقيَّ وذراعيَّ وخصري، وكل مكان في جسدي، حتى صرت ملجماً تماماً، ولا

يظهر من جسدي غير وجهي. يا إلهي، ما العمل الآن؟ عقلي لا يسعفني إلى شيء.

في هذه اللحظة لم تعد سارة تقوى على التمسك بالعمود، وأخذت تصرخ وتستغيث بي:

- عادل .. ساعدني يا عادل.

يا إلهي .. أنقذ سارة.

فجأة اندفع البحارة الخائفين، بمنتهى القوة وهم يشهرون سيوفهم ويقاتلون هذه الحبال النباتية، ويقطعونها. وشعرت بأن الحبال التي تقيدني قد بدأت في الانحسار عني تدريجياً، ثم اندفع ثلاثة من البحارة الشجعان نحو سارة ومزقوا كل الحبال المتمسكة بها. ونجحوا في إنقاذها. ولم تلبث هذه الحرب الضارية أن انتهت، وكأن الحبال قد نفدت.

هتفت بمنتهى الفرح:

- مرحى يا رجال .. مرحى.

وفي وقت لاحق، سألت سلام:

- أنا لا افهم .. كيف هبوا بكل هذه الشجاعة، بعد أن كان الفزع متملك من قلوبهم؟

وأتذكر جيداً أن سلام ضحك حينها ثم قال بلهجة أشبه بالفخر:

- إننا عرب صفصافة لدينا حمية كبيرة جداً .. ونغار على نسائنا أكثر مما تتصور .. ولما سمع الرجال صوت صراخ سارة .. نسوا خوفهم وأنفسهم .. بل ونسوا الحياة ذاتها .. وثارت حميتهم لإنقاذ الفتاة.

فقلت له:

- لكن أتعلم أمراً .. أنا سعيد لأن هذه الحادثة قد وقعت.
- حقا؟!

- بالتأكيد .. لأنها أثبتت للرجال أنهم يستطيعون تجاوز هذا الجحيم إن اتحدوا وواجهوا ما يعترضهم فيه بشجاعة.

فكر قليلاً وهو ينظر إلى الرجال الذين دبت فيهم الحماسة والشجاعة، وزال خوفهم تماماً وقال:

- أظن أنك محق تماماً فيما تقول .. أتدري ما معنى هذا؟

نظرت إليه بتساؤل، فأردف وقد التمعت عيناه:

- معناه أننا سنتجاوز هذا الضباب.
- أمتأكد؟
- بالطبع .. ما دمنا يداً واحدة .. لن يوقفنا شيء.
- كم أتمنى أن أصدق ما تقول يا سلام.

فقال:

- كان القبطان هشام يقول: إذا اتحد الرجال بعد فرقة .. صار النصر على بعد ذراع أو أقل.

ابتسمت لسماع ذا الكلام، وهممت بالثناء على القبطان هشام، إلا أن مراقب البرج صاح فجأة:

- سيدي .. هناك ضوء يقترب منا.

سرت همهمات بين البحارة، وكاد الخوف يعاود الزحف إلى قلوبهم، لولا أن سلام صاح فجأة:

- ما الأمر يا أسياد المحيط؟ هل سيستبد الخوف بكم من جديد؟ لقد رأيتم كيف تغلبنا على حبال الشيطان .. ومحاولته الفتك بنا.

واستطرد بمنتهى الشجاعة قائلاً:

- باتحادنا وشـجاعتنا .. لن يجسـر لوسـيفر[٤] نفسـه على التفكير في مواجهتنا.

ونظر إليَّ وصاح:

- ننتظر منك الامر أيها القبطان.

فوقفت على مقدمة السفينة، وأشهرت سيفي عالياً وأشرت به وأنا أهتف:

- إلى الأماااام.

وتفجرت الصيحات الحماسية:

- هاااااااااي.

* * *

[٤] لوسيفر: كلمة لاتينية تعني (حامل الضوء)، ويشار إليه باليونانية إلى (كوكب الزهرة)، وقد ساد اعتقاد أنه أحد أسماء إبليس.

(٢٥) النهاية

صاح مراقب البرج:

- الضوء يقترب يا سيدي.

قلت وأنا أرسم على وجهي تعابير الشغوف للخطر:

- خطأ .. بل بحن الذين نقترب منه.

ورغم أن التعابير على وجهي أوحت بأنني أشتاق لغزو هذا الضوء المجهول. إلا أنها كانت مجرد تعابير تصنعتها، حتى لا يشعر الرجال بالخوف من جديد. وفي حقيقة الأمر، كاد قلبي يتوقف من فرط ما اشعر به من خوف وقلق.

لكني كنت صامداً ثابتاً على مقدمة السفينة، وأرى الضوء يقترب منا أكثر... وأكثر... وأكثر...

وفجأة...

آخر شيء كنت أتوقعه، وكان أي شخص على متن السفينة يتوقعه...

لقد كان هذا الضوء، هو ضوء الشمس.

صاح أحد البحارة وعيناه متسعتان عن آخرهما:

- هل أنا أحلم؟! هل حقاً انتهى هذا الجحيم؟!

ولم أكن أنا بأقل منه ذهولاً، ولا سعادة، وصحت بسعادة وأنا أدلف إلى القمرة صائحاً:

- سارة .. سارة...

ودلفت إليها وأنا ألهث، ولا أكاد ألتقط أنفاسي، فقالت لي:

- ما الأمر؟ هل حدثت كارثة أخرى؟

ضحكت وأنا أقول:

- كارثة أخرى؟! لقد انتهت الكوارث يا عزيزتي، انتهت تماماً.
- ماذا تقصد؟
- لقد خرجنا من الضباب يا عزيزتي .. عبرنا مثلث برمودة.

احتبست أنفاسها للحظة قبل أن تهتف بسرور:

- أحقاً ما تقول؟

وظلت سعادتها تتزايد وتتزايد وهي تردف:

- حمداً لله .. الحمد والشكر لك يا رب.

ولم تدر بنفسها وهي تلقى بجسدها بين أحضاني، وتقول:

- شكراً لك يا عادل .. شكراً يا حبيبي.

كانت حقاً لحظة لا تصدق، ليس لي وحدي، ولا لسارة وحدها، وإنما لكل من تحمله السفينة. أخيراً لقد انتهت متاعبنا.

وصلنا إلى ولاية فلوريدا الأمريكية، وتم تسليمنا جميعاً إلى السفارة المصرية، وكانت هناك متاعب كثيرة، وتحقيقات لا حصر لها، ولم يصدق أحد حكايتنا لأنها لم تكن منطقية من وجهة نظرهم، لكني كنت دائماً أصرخ في وجههم:

- تباً للمنطق إن كان سيزور الحقائق.

ورغم أن حكايتي غير منطقية بالنسبة لهم، إلا أنهم لم يجدوا تفسيراً واحداً منطقياً لوجود هؤلاء البحارة.

أتذكر من ضمن ما حدث جلوسي مع عالم من أكبر علماء الجغرافيا في العالم اجمع، كان رجلاً في أوائل العقد السادس من عمره، شعره أشعث، وعيناه زائغتان، ويحاول دائماً أن يتحكم في أعصابه. منظره كان يوحي أنه ينتمي إلى عالم المجانين، لكنه كان – للأمانة – يمتلك معلومات لا حصر لها، كان موسوعة متنقلة.

قال لي بعد أن سمع قصتي:

- كم يوماً ظللت تبحر بعد أن دخلت نطاق الضباب؟
- حوالي عشرة أيام.
- عشرة أيام فقط؟!
- نعم.

فصاح:

- مستحيل.

ثم أدنى رأسه مني أكثر، وأردف:

- هل تعلم أن مساحة مثلث برمودا تبلغ حوالي مليون كيلو متر مربع، وهو يقع بين جزر برمودا، وبورتريكو، وفلوريدا؟

قلت بلا مبالاة:

- ليكن .. وماذا في ذلك؟
- أعني أن الجزيرتين اللتان زرتهما ليستا موجودتين في هذه المنطقة أبداً .. أي ليستا قريبتين من مثلث برمودا كما تزعم .. كما أن ثلاثة أيام لا تكفي تلك السفينة البدائية – التي أقلَّتك – لقطع هذه المسافة الكبيرة .. ما التفسير في رأيك؟

قلت له:

- لا أدري .. كل ما أعلمه أنني أخبرتكم آلاف المرات بما حدث .. ولدي دليل قوي هو طاقم من البحارة وسفينتهم.

- دعني أســـألك ســـؤالاً آخر: هل تذكر وقت وقعت من الطائرة في المحيط؟
- نعم.
- ألاحظت شيئاً مختلفاً في الماء.
- لم أكن في حالة تسمح لي بالتأمل فيم حولي.
- أرجوك تذكر .. أغمض عينيك .. واستعد المشهد في ذهنك.

أغمضت عيني واستعدت هذ الموقف من جديد في ذهني. ثم قلت:

- شيء واحد فقط كان مختلفاً .. لكني لا اظنه مهماً.

صاح الرجل في غضب:

- اللعنة على ما تظن .. أخبرني فقط ما هو هذا الشيء.
- لقد كانت مياه البحر بيضاء .. ولم تكن زرقاء.

اتسعت عيناه عن آخرهما، وسال بشغف:

- وفي أي بقعة رأيت المياه عادت لزرقتها الطبيعية؟

كان يحدق فيَّ بمنتهى الاهتمام، وينتظر إجابتي بفارغ الصبر، فقلت له:

- أظن أنني لاحظت أن المياه اكتسبت زرقتها فور أن خرجنا من مثلث برمودا.

قفز الرجل من مقعده صائحاً:

- هذا هو الجواب الذي كنت انتظره تماماً.

ودخل الغرفة على إثر صياحة وكيل النيابة المكلف بالتحقيق معي، وقال:

- ماذا حدث يا دكتور؟

نظر إليه وقال:

- هذا الفتى يقول الحقيقة.

فقلت:

- حتى ولو كنت أكذب .. لمَ أنا هنا؟ هل أنا متهم بشيء.

لم يلتفت الوكيل إليَّ، وإنما قال للعالِم:

- لكن كلامه هذا غير منطقي.

فصاح العالِم:

- غير منطقي لك ولأمثالك من ضعاف العقول .. هذا الفتى لم يكن في جزيرة بالقرب من مثلث برمودا كما يدَّعي .. بل كان في جزيرة داخل مثلث برمودا!

* * *

(٢٦) خاتمة

تم تبرئ ساحتينا – أنا وسارة – ولم تثبت علينا أي تهمة، أما بالنسبة للبحارة، فأظن أنهم سيطلقون سراحهم بعد سماع شهادة عالم الجغرافيا المجنون، وسيرسلونهم إلى بلد أسلافهم، إلى اليمن.

وعدنا إلى ديارنا، لأجد أمي مريضة، وأبي قائم على رعايتها، فما أن رأتني حتى أنستها الفرحة آلام المرض، ونهضت تركض نحوي، وأركض نحوها بدوري، ثم ارتميت بين أحضانها وهي تقبل بلهفة في رأسي ووجهي وكتفي، وتقول بلهفة وهي لا تكاد تلتقط أنفاسها:

- لا أصدق أنك أمامي أخيراً .. حمداً لله.

ثم نظرت نحو أبي واستطردت:

- ألم أخبرك يا أحمد أنه حي .. وأنا أشعر به؟

وعادت تقول وهي تشبع عينها مني:

- لقد استجاب الله – سبحانه – لدعواتي وصلواتي .. وها أنت تقف أمامي الآن يا نور عيني.

ووقف أبي أمامي للحظة، ثم عانقني بقوة وهو يقول:

- حمداً لله على سلامتك يا بني.

ثم استرسل وهو يبكي:

- يعلم الله أنك بعودتك هذه أعدت الحياة لي ولأمك المسكينة.

قبلت يده وأنا أبكي وأقول:

- لن أفارقكم أبداً بعد اليوم يا أبي .. أبداً.

* * *

مرت بضـعة أيام، أخبرت خلالها أمي وأبي بالمغامرة التي قمنا بها، صـدقتني أمي – كعادة الأمهات في أغلب الأحيان – لكن أبي رفض التصـديق بالكلية. وحين صـارحتهم بأني أريد التقدم لسـارة، تبادلا النظرات فيما بينهم، دون أن يعطوني رأيهم، بيد أن أبي طلب مني أن أنتظر بعض الوقت حتى يستفسر عنها وعن أهلها. فوافقت وأنا أقول له أنها فتاة ممتازة. وبعد بضـعة أيام، تحديداً في الساعة العاشرة من مساء يوم أربع، قدِم أبي إليَّ وقال:

- عادل .. أريدك أن تبتعد عن هذه الفتاة يا بني.
- لماذا؟
- إنها لا تناسبك.
- أبي .. أرجوك أخبرني السبب.

صمت قليلاً، ثم قال:

- قلت إنها لا تناسبك وكفى.
- وأنا لن أرضى بتركها بدون علم السبب.

تنهد في استسلام ثم قال:

- إنها لاعبة جمباز.
- وماذا في ذلك؟

صاح مغضباً:

- وماذا في ذلك؟! يا بني .. نحن أناس بسـطاء .. من عائلة محافظة .. نحاول قدر المستطاع الابتعاد عن كلام الناس .. وعن إغضاب الله – سـبحانه وتعالى – قبل ذلك .. لا تأت أنت بعد كل هذه السـنوات وتسبب لنا الفضيحة وتغرقنا في الآثام.

صحت:

- أسبب لكم الفضيحة لأني أريد التزوج بمن أحب؟! أغرقكم في الآثام لأن سارة بطلة رياضية؟! آسف يا أبي .. أنا لا أفهم وجهة نظرك هذه.

كنت أعلم أن أبي يحاول اختلاق الأعذار. فلم يكن عذره منطقياً أبداً، ولكن لماذا يقدم على ذلك؟

هناك سبب قوي، أكثر منطقية من هذا السبب الواهن، وسأكتشف ما هو.

قالت أمي وهي تربت على ظهري في حنان:

- أطع أباك يا عادل .. إنه يريد مصلحتك يا بني .. وبشأن زواجك .. فإن عروسك عندي.
- اخترتم لي العروس؟ من يا تُرى؟
- هالة.
- ابنة عمي؟! هكذا إذاً.

صاح أبي:

- نعم ابنة عمك .. ماذا بها؟ جميلة .. ومتعلمة .. ومؤدبة .. ومتدينة .. وعلى خلق قويم .. وأيضاً هي واحدة منا .. ونحن نعلم أصلها وطبعها.
- لكني لا أميل إليها .. أنا أحبها كأخت لي .. لكن لا أراها كزوجة.

هتف أبي وهو يضرب على ركبتيه نافذ الصبر:

- ماذا حدث لك يا عادل؟ ألم نتفق قبل سفرك على أنك ستتزوج من ابنة عمك فور عودتك من الخارج؟
- نعم ولكن .....
- ولكن ماذا؟ لماذا غيرت رأيك؟ ماذا فعلت لك هذه الفتاة؟ ماذا دار بينكما؟

صاحت أمي:

- أحمد...

بينما نظرت إليه وأنا أتساءل وقد بدأت أغضب:

- إلام تلمح يا أبي؟
- مقصـدي واضـح .. فتاة جميلة وشـاب مكتمل الرجولة وحدهم على جزيرة معزولة .. ما معنى ذلك؟

اتسعت عيني من الدهشة وأنا أسمع أبي يقول هذا الكلام البشع في حقي وحق سارة، فقلت له باستنكار:

- هل تدرك حقاً خطورة ما تقول يا أبي؟ أتطعن في شـرف الفتاة البريئة؟

بنبرة ساخرة قال:

- بريئة.... ؟

قاطعته بحدة:

- نعم بريئة .. وإن كنت لا تصدق .. فهذا شأنك وحدك.
- أهكذا تخاطب والدك يا عادل؟

هدأت فجأة، وشعرت بأني بالغت في انفعالي، فاعتذرت منه قائلاً:

- أنا آسف حقاً يا أبي .. أرجوك لا تغضب مني.

وكنت على وشك أن أنزل على رغبتهم مكرهاً، فقد فكرت في أني لا أستطيع – مهما حاولت – أن أقنعهما، لولا أني تذكرت فجأة القبطان هشام وهو يقول لي: يجب أن تحذف من قاموس حياتك كلمتين ملعونتين وهما: (لا أستطيع – ومستحيل).. من يقلهما أو يؤمن بهما .. لا يمكن أن يكون عظيماً، أو أن يحقق أهدافه في يومٍ من الأيام.

كما أني تذكرت حين قال: سارة فتاة رائعة .. و قد تكون أعظم هبة وهبت إياها .. لا تضيعها من يديك.

أعادتني أمي إلى أرض الواقع بأن قالت:

- يا بني .. نحن لا نبغي إلا مصلحتك.
- لكني أعلم مصـــلحتي جيداً يا أمي .. أقول لكما أن ســـارة هي أكثر شخص مناسب لي في هذه الدنيا.

قال أبي:

- مـا الـذي يجعلك متـأكداً أنهـا ســـتوافق عليك على كـل حـال؟ لقد اسـتفسـرت عنها وعلمت أنها من عائلة فاحشــة الثراء .. ونحن كما تعلم أناس بسطاء .. وهذا سبب كفيل لعرقلة أي زيجة.
- ستوافق يا أبي .. أنا متأكد.

قالت أمي:

- ألهذه الدرجة تحبها يا بني؟
- نعم يا أمي.

فقالت لأبي:

- دعه يتحمل نتيجة اختياره يا أحمد.

صمت أبي، وأنشأ يذرع الأرض جيئة وذهاباً، وهو غارق في تفكير عميق، ثم تنهد في استسلام وقال:

- الأمر لله.

* * *

حين ذهبنا لخطبة ســـارة، توقعت الرفض من جانب والدتها، كما حدث من قِبَل والدي.

قالت السيدة سميرة (أم سارة) بجفاء:

- أخبرتني سارة أنها تحبك .. وأنك أيضاً تبادلها نفس الشعور.

احمر وجه ســارة خجلاً، واحمر وجهي أنا الآخر، وشــعرت بقلق من طريقتها الجافة في الحديث، فاستطردت مبتسمة:

- لكني ما كنت لأقف في وجه هذا الحب أبداً.

هتفت غير مصدقٍ:

- حقاً؟!
- نعم يا أســتاذ عادل .. لقد قســوت على ســارة في الماضــي .. وحين فقدتها .. شعرت أن هذا بسبب قسوتي المفرطة .. أما بعد أن أعادها الله – سبحانه وتعالى – لي .. لست مستعدة أن أفقدها من جديد .. كما أني أؤمن بشدة بالحب.

ثم قامت إلى صورة رجل معلقة فوق الجدار، ووقفت تنظر إليها وهي تقول:

- لقد أحبني والد ســارة كثيراً .. كما أنه واجه الدنيا بأســرها .. فقط من أجل أن يتزوجني.

قلت لها:

- إذاً أأنت موافقة؟
- نعم موافقة .. ولكن بشرط...

تعلقت عيني بها في تساؤل، فأردفت:

- أن يستمر حبكما للأبد.

* * *

تمت بحمد الله